

محاضرة:

"البناء الفكري لطالب العلم"

تقديم:

د. فهد بن صالح العجلان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، أحمدُهُ حمداً يليقُ بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلم وأبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.
ثمَّ أمَّا بعد:

فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وأشكر الإخوة الأفاضل على الترتيب لهذا اللقاء، الذي أسأل الله بأسمائه الحسنى أن يطرح فيه البركة والنفعة، حديثنا أيُّها الإخوة حول:

"البناء الفكري لطالب العلم"

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن قبل الحديث في تفاصيل هذا الموضوع، هو:

ما المقصود بالبناء الفكري الذي ننشده ونريد من طالب العلم أن يحرص عليه؟

قبل أن نتحدث عن البناء الفكري، نقف قليلاً حول موضوع الفكر، فما المقصود بالفكر؟ هذه الكلمة التي أصبحت من الكلمات الرائجة بحيث يسمعا الشخص في اليوم الواحد عشرات المرات، ما المقصود بالفكر؟

ربما الكثير يزعج؛ لعدم استطاعته الجواب عن هذا السؤال، والحقيقة أن الشخص الذي يقول: أنا لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال، قد يكون هو الذي يعرف الجواب عن هذا السؤال.

لماذا؟

لأنَّ موضوع الفكر ليس له في الحقيقة ضابط موضوعي يضبط حدوده وما يدخل فيه وما يخرج فليس المقصود بالفكر في الكتابات المعاصرة، كل أعمالٍ للفكر، يعني ليس أيُّ حركة فكرية أو أي ذهن عقلي هو من قبيل الفكر، وإلا فكل تصرفات الإنسان هي أساساً مبنية على تفكير، إذًا المقصود هو تفكير معين، ما هو هذا التفكير المعين؟ تبدأ الأذهان تختلف في تحديد هذا الأمر.

أيضًا الفكر ليس متعلقًا بموضوع محدد تستطيع أن تعرف بدايته ونهايته، يعني مثلًا الفقه واضح، يبدأ بكتاب معين، وينتهي بكتاب معين، يتناول قضايا معينة بطريقة معينة، ليس في الفكر شيء بهذا المعنى؛ فعندما يأتي الشخص فيسأل سؤالًا يقول: أعطني كتابًا أستطيع فيه أن أفهم الفكر، فالجواب عن هذا السؤال خطأ، لماذا؟ لأن السؤال خطأ، ليس لدينا في الفكر علم واضح منضبط، أستطيع أن أضع لك كتابًا فيه بحيث أجمع المواد المتعلقة فيه.

إذاً كل حديثنا عن الفكر هو حديث تقريبي، يعني محاولة لتقريب المقصود، وليس أنه ضبط لهذا المفهوم، طبعًا عدم الانضباط في هذا المفهوم أثر على موضوع علاقة الفكر بطلبة العلم، وسأتحدث عنه بعد قليل، يعني عدم انضباط هذا المفهوم أو وجد إشكالات في كيفية تعاطي طلبة العلم مع موضوع الفكر.

إذا أردنا التقريب؛ فنستطيع أن نقول: الفكر هو: حركة أو نشاط عقلي ذهني يسعى إلى توظيف المعارف في الواقع -الاقتصادي أو الاجتماعي أو الثقافي أو غيره- للتأثير في واقع معين بناءً على خلفية محددة.

إذاً، كل علم تستطيع أن تأخذ منه جانب للقضايا الفكرية: الشريعة، الاقتصاد، علم النفس، علم الاجتماع، علم السياسة.. كل العلوم، ثمّة مساحة من هذه العلوم جرى فيها حديث ونزاع ووظفت أدوات فيها في تغيير ثقافي أو اجتماعي أو اقتصادي، فتعتبر من قبيل الجوانب الفكرية.

أوضحها بشكل آخر.

يعني مثلًا باب الصيام في الفقه، ليس بحثًا فكريًا بحسب الشائع في الفهم المعاصر، إنما هو بحث فقهي، متى يكون كتاب الصيام أو باب الصيام، أو هذا الموضوع فكريًا؟ لو طُرحت مثلًا مسألة: منع الناس من الصيام لأجل العمل كما طُرحت قبل سنوات في أحد البلدان، فطرح أن الناس يحصل لهم مشقة، والعمل أهم من الصيام، والعمل يعني فائدته متعدية، والصيام فائدته قاصرة؛ إذاً نترك الصيام ونبدأ بالعمل، هنا البحث سيحصل فيه

جدال ونقاش؛ تحوّل الموضوع من موضوع فقهي إلى موضوع فكري، لأنه ارتبط بتأثير في الواقع، تبعه جدل واختلاف بناءً على خلفيات.

هذا مثال في الشريعة تأتي بمثله في الاقتصاد في السياسة.. وغيرها، هذه مقدمة فقط في موضوع الفكر مهمة؛ لأنها تساعدنا في إعادة التوازن في علاقة طالب العلم بالجوانب الفكري، بعد ذلك نأتي إلى سؤال:

ما المراد بالبناء الفكري؟ ماذا نريد بموضوع البناء الفكري؟

نريد بالبناء الفكري أن يمتلك طالب العلم الشرعي، وهو الهدف الأساسي من حديثنا في هذه المحاضرة، أن يمتلك طالب العلم أدوات ومهارات شخصية، ويطلع على معارف متنوعة تثمر بُنيةً فكريةً عميقة؛ يستطيع من خلالها أن يكون تأثيره ونفعه أعظم، وسيأتي لاحقًا الحديث عن هذه الجوانب الأساسية في البناء الفكري، وهي: المهارات، والمعارف، والبُنية التي هي نتيجة العلاقة بين المهارات والمعارف، وهي امتلاك الشخص إلى مكنة أو بُنية نفسية يستطيع من خلالها أن يستثمر معلوماته بشكل أفضل وأقوى.

إذا تقرر هذا، تحدثنا عن إشكالية اسم الفكر، إذ أصبح في أذهان كثير من طلبة العلم، إن الفكر مقابل للعلم الشرعي؛ فأصبح لدينا فكر ولدينا علمً شرعي، فأصبح الشخص إما أن يقرأ في العلم الشرعي، أو يقرأ الفكر، إما لدينا مفكر أو طالب علم، هذه المقابلة يعني طرحت أسئلة كثيرة، وأربكت كثيرًا من الشباب؛ نظرًا لأن المقابلة في حقيقتها مقابلة خطأ؛ فلسنا أمام فكر يقابل علم، ليس الفكر علمًا يوازي العلم الشرعي، نعم العلم الشرعي يمكن أن يقابله مثلًا الفلسفة، نعم العلم الشرعي يقابله علم النفس مثلًا، علم الاقتصاد، نعم عندنا أناس متخصصون في الاقتصاد، وأناس متخصصون في العلم الشرعي، لكن الفكر ليس بهذه الطريقة، فليس الفكر مقابل للعلم الشرعي حتى يُطرح علينا سؤال: هل طالب العلم يكون مفكرًا أو يقرأ في الفكر أكثر، أو يقرأ في العلم الشرعي أكثر، السؤال هنا غير صحيح؛ لأنه مبني على عدم دقة في فهم موضوع الفكر، وسيأتي توضيح لهذا بعد قليل.

هدفنا في هذا اللقاء:

خطاب لطلبة العلم الشرعي في كيفية الاستفادة من الجوانب الفكرية والمضامين الفكرية في تأسيسهم العلمي والشرعي؛ حتى يصل إلى مستوى أمثل وأعظم في طلبه للعلم الشرعي، فالحديث هنا ليس حديثًا لعامة الناس، ولا حديثًا لعموم المثقفين، حديث لطلبة العلم الشرعي في كيفية استفادتهم، وحرصهم على التكوين الفكري المتميز، وهذا طبعًا سيؤثر في مسار الحديث، فنحن لا نريد بناء فكري لعموم الناس، ولا لعموم المثقفين، إنما بناء فكري لطالب علم شرعي هو في النهاية طالب لعلوم الشريعة، إذا تقرر هذا المدخل.

فما الآثار التي تحدثُ لطالب العلم الشرعي عندما يضعف تكوينه الفكري؟

عندما يضعف البناء الفكري عند طالب العلم، تظهر جملة من الإشكالات سأحدث عنها واحدةً واحدة، ليس بالضرورة أن هذه الإشكالات تجتمع كلها في شخص واحد، إنما قد تجتمع في شخص، قد تتوزع على أشخاص، قد يوجد شيء منها عند شخص دون آخر، لكن لدينا إشكالات عدة إذا ضعف البناء الفكري عند طالب العلم تبدأ هذه في الظهور على الساحة وعلى السطح.

الإشكال الأول: القصور في البناء الشرعي للأحكام.

فطالب العلم مطالب منه أن يُبين للناس الأحكام الشرعية بيانًا شافيًا محكمًا مفصلاً، وينافح عن أحكام الشريعة، ويقنع الناس بها، هذا الأمر مرحلة تزيد عن مجرد طلبه للعلم الشرعي، يعني أنني أعرف أن هذا الحكم حرام أو حلال أو شرط أو واجب هذه مرحلة.

المرحلة الأخرى: أن أنشر هذا الأمر في الناس، وأعمق هذا المفهوم، أنافح عنه، وأجمع الحجج، هذه مرحلة إضافية، ليس كل طلبه العلم قادر على تحقيق هذا الأمر، فبقدر تمكن طالب العلم في معارفه ومهاراته وبنيته، وبقدر تأسيسه الفكري الذي سيأتي تفصيله لاحقًا، يكون قادرًا على بيان الأحكام الشرعية.

مثال ذلك:

عندما يتحدّث طالب العلم الشرعي مثلاً عن حرمة الربا؛ فحرمة الربا والدليل عليها وحدود ذلك هذا أمر مهم، وله حد معين.

المرحلة الأخرى: كيف تُنفع الناس وتعمق في أذهانهم حكمة تحريم الربا، بيان أضرار الربا، العلاقة بين المنظومات التي تعتمد الربا والتي لا تعتمد الربا، هذا مستوى يتجاوز مجرد الاطلاع على حكم الربا، فاطلاع طالب العلم على الدراسات المعاصرة التي تتكلم عن حكمة تحريم الربا، وآثار الربا على الاقتصاد الربوي المعاصر... وغير ذلك، هذا مستوى عالٍ جداً يستطيع من خلاله أن يبين الأحكام الشرعية بياناً شافياً مكتملاً.

أيضاً من إشكالية القصور في البيان الشرعي للأحكام، أن طالب العلم الشرعي قد يغيب عنه التصور الكلي للحكم، يكون عنده معرفة بالحكم الشرعي كجزئيات منفصلة، لكنه لا يملك تصوراً كلياً عن الأحكام؛ فقد يجتمع في ذهنه رأيان متناقضان؛ نظراً لأن الصورة عنده ليست صورة محكمة البناء، تجد مثلاً بعض الشباب المهتمين بالعلم الشرعي، يعني لما يأتي في باب العقيدة مثلاً يقرر الحكم بالشرعية، وأن الحكم بما أنزل الله، ويقرر أدلة ذلك بأحسن ما يكون، ثم يأتي في باب آخر في باب السياسة، يقرر أحكاماً قد يسمعا بلغة فكرية جديدة، فيقبل أفكاراً تناقض الذي أصله في باب العقيدة.

السبب في هذا التناقض:

إنه ليس هناك رؤية واحدة تحكم الأبواب والمسائل، وهذه الرؤية ليست مجرد بحث فقهي، إنما تحتاج إلى معارف أو مهارات تضبط التصورات عند الشاب، حتى لا يتغير حكمه من باب إلى باب آخر.

يتبع ذلك أيضاً مما له تعلق بالبيان الشرعي: ضرورة أن يميز طالب العلم الحد الشرعي الذي جاء فيه النص، بحيث لا يتجاوزوه، فيمنع أو يحرم شيء ليس له علاقة بدلالة النص، كما أن لدينا فئة تسحب دلالة النص فتبيح ما حرم الله، وتحرف الأحكام وتأوله، أيضاً بعض طلبة العلم قد يوسع دلالة النص، فيدخل في النص ما ليس منه غيراً

وحامية؛ فتؤدي هذه الزيادة إلى إضعاف النص نفسه؛ لأنه أدخل عليه شيء لا يدلُّ عليه، فهذا من القصور، يعني من المهم أن تبين الأحكام الشرعية بياناً كاملاً، فحين يدخل في النص ما ليس منه لأي سبب فإن يؤدي إلى إضعاف البيان الشرعي للأحكام.

مثال ذلك:

لما يأت شخص فيقول مثلاً: ثبت علمياً أن الموسيقى تعالج من أمراض معينة، وهذا كلام يُطرح في الإعلام، وفي الكتابات، وربما يعني بعض الأبحاث تذكر هذا، بعض الإخوة يعني مباشرة يقول: هذا غير صحيح، لو كانت مثلاً علاجاً لما حرمتها الشريعة، ويورد الأدلة المحرمة، فيعني لم يتفطن إنه هناك حد محكم للتحريم، وهناك أشياء إضافية، المحرم هو تحريم الموسيقى، موضوع العلاج هذا موضوع إضافي، يعني حتى لو ثبت العلاج بها، ليس له علاقة بأصل التحريم، الخمر قد يُعالج به، فما أقول: الخمر ليس علاجاً مطلقاً، لا؛ نقول: إذا ثبت العلاج -وهذا بحث آخر- فهو علاج محرم، وحرمة الشريعة لمفسدة اعظم، ولا يقتصر العلاج عليه، وانتهى الموضوع، يعني لا أدخل شيئاً إضافياً على أصل حكم يترتب عليه؛

لأننا بهذا نصح بين رأيين: رأي حتى يحافظ على تحريم الموسيقى يمنع موضوع العلاج مطلقاً، ورأي لأنه شعر بوجود علاج أصبح يشكك في الأصل، بينما لو عرف الشخص إنه هناك حد للبحث الشرعي، وهناك شيء خارج عنه، لحصل عنده انضباط في البيان للأحكام الشرعية، هذا ما يتعلق بالأثر الأول من آثار ضعف البناء الفكري.

الأثر الثاني: الانفصال عن الواقع وانقطاع جسور التفاهم:

يعني ابتعاد طلبة العلم عن البناء الفكري يؤدي إلى أن يكون ثم مسافة بين طلبة العلم، والواقع الذين يعيشون فيه، فيكون طالب العلم قادراً على الحديث عن تفاصيل المشهد الفقهي القديم، فهو يعرف مثلاً شكل الدولة الإسلامية، وأحكام أهل الذمة، والجزية، وتفاصيل الأمان، فعنده قدرة كبيرة جداً في فهم البحث الفقهي في أصله المقرر في الكتب، لكن لو انتقل انتقلاً يسيراً للواقع، فحدث عن المفاهيم الشائعة للمواطنة وما

يتعلق بها، ما الأحكام المتعلقة بها؟ تجده يقف، فهناك انفصال بين المادة القوية الثرية التي يملكها، والتي أكثر من يخوض في هذه الأبواب لا يحسنها، فهناك انفصال نظرًا لأنه ليس هناك جسر يجمع بين الطرفين، ويؤدي إلى حصول تفاهم.

كثير من الإشكالات المعاصرة لا تنبثق من أناس يعاندون الشرع ويجادون، نعم هناك أناس عندهم إشكالات مع النص ومع الدين ومع الوحي، عندهم منظومة أفكار مختلفة، لكن كثيرًا من الناس عندهم إشكالات يحتاجون فيها إلى من يمد لهم جسر تواصل، يمرر لهم معلومات صحيحة، ويسحب منهم معلومات خاطئة، فتكتمل عندهم الصورة، أو على الأقل تحف، يقل جانب الخطأ والانحراف في تصوراتهم، عدم وجود بناء فكري جيد يجعل طلبة العلم لا يحسنون مثل هذا التواصل.

دعني أضرب مثالاً أيضًا من القضايا الفكرية التي يحصل فيها أحيانًا نزاع من أرضيات مختلفة ليس في جسر يجمع بينهما.

موضوع العين والسحر والمس، وما يتعلق بها، دومًا ما يحصل نزاع في هذه الموضوعات مع المتخصصين في الطب النفسي وغيرهم، فالمختص النفسي يقول: الأمراض النفسية التي نتعامل معها لها يعني سبب عضوي واضح، نقص من أشياء معينة، وعندنا أدوية تعالجها، ولها أسباب معينة، فيقابل طالب علم يقول له: لا؛ غير صحيح، هذا عين وهذا سحر، وهذا مس ولا تفيده الأدوية، ولا ينفعه العلاج.. الخ، فهناك نزاع ليس بينهما جسر يجمع بينهما.

فقد يأتي مختص محب للشريعة ومعظم لها، لكن يحتاج لمن يمد الجسر فيوضح له حقيقة موضوع العين والسحر والمس، وهو يرى من البحث التجريبي العلمي أن هناك يعني أسباب مادية واضحة هي التي سببت هذه القضايا، بينما الشخص الذي عنده بُنية مكتملة علميًا وفكريًا يستطيع أن يمد هذا الجسر؛ فيبين أن موضوع العين والسحر يتعلق بشيء غير مادي، وأنت تتكلم عن شيء مادي، ليس ثمة منافاة بين أن نجمع بين هذين الأمرين، فنحن لا ننكر المادة وعلاجها وأسبابها، لكن غاية ما تريد أيها المختص، غاية ما

تريد أنك تقول: أنا لا أستطيع أثبت العين إثباتاً مادياً، وهل يقول عاقل: إنه تستطيع إثبات شيء غير مادي بطريقة مادية؟ يعني البحث التجريبي يثبت الأشياء المادية؛ فلما يقول: أريد إثبات العين مادياً، ما صارت عين أساساً، يعني هي روح شيطانية، تريد إثباتها مادياً؟ لم تعد حينئذٍ روحاً شيطانية، إذًا بإمكانه أن يؤمن بالأمرين، ولا منافاة بينهما، يؤمن أن هناك مرض، له أسبابه الحسية، وفي نفس الوقت يثبت أن هناك عين، وهناك مس وهناك علاج لها، قد نقطع بوجوده أو نظن، يحصل هناك جسر يجمع بين التصورين، يعني غياب هذا الجسر يؤدي أحياناً إلى شطح بعض الناس لأنه لم يصل إلى جسر يقربه إلى المفهوم الشرعي الصحيح.

الأثر الثالث: من آثار الضعف في البناء الفكري: الضعف في استثمار المادة

الفقهية وتفعلها:

فضلبة العلم الشرعي حباهم الله مادة شرعية تراثية كبيرة جداً، فهم يطالعون على مدرسة تاريخية كبيرة ثرية بالمعلومات، لكن قصور البناء الفكري يجعله لا يستطيع يستثمر هذه المعلومات ويوظفها في الواقع.

مثلاً: كثير من المباحث المتعلقة بالحالة المعاصرة يتولاها بعض الإخوة المتخصصين في القانون مثلاً، وهي مباحث شرعية، فنظرًا لقدرتهم على مواكبتهم للعصر واحتكاكهم بالأنظمة الحديثة، يعني يطرحون أسئلة، ويجيبون ويكتبون ويؤلفون كتابات جيدة، لكن عندما يدخل طالب العلم الشرعي إلى هذه الأبواب، هو ألصق بهذه الأبواب منهم؛ فيستطيع أن يقدم معلومات وإضافات أفضل بكثير.

وحتى لا نغرق في التجريد الذهني، نطرح أمثلة واقعية: ما حكم تولي المرأة للرئاسة العامة؟ مبحث شائع في الكتابات القانونية المعاصرة، والقانونيون كتبوا كثيراً في هذا الأمر، ونظرًا لاحتكاكهم بالحالة المعاصرة، سبقوا الشرعيين والفقهاء في الكتابة والتأليف، لكن كثيراً منهم ليس عنده المادة التراثية التي عند الفقيه، فإجاباتهم ومعلوماتهم لا تزال محدودة؛

بينما الفقيه لو دخل هذه الساحة وعرف المجال الذي تتحرك فيه هذه الكتابات؛ لاستطاع أن يبدع ويضيف من التراث العميق، فيستطيع أن يستثمره.

ولا زلت أذكر أحد القانونيين الفضلاء في هذه المسألة تحديداً، ذكر هذه المسألة وأورد إشكالاً أنهم يقولون عن حديث: «لن يُفْلَح قَوْمٌ وَلَوْ أَمْرَهُمْ امْرَأَةٌ» يقول بعضهم: إنه هذا خاص بحادثة بنت كسرى فقط، يعني العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ كما يستدلون، فاجتهد في الإجابة بحسب ما يعرف، ثم كتب حقيقة العبارة يعني تفيض الماء، عندما قال: وأنا أعتب على الإخوة المتخصصين في العلوم الشرعية، كيف ابتعدوا عن الإجابة عن هذه الإشكالات! يعني هو فعلاً يشعر أنه أمام استدلال في قضايا أصولية، في النهاية لن يستطيع أن يجيب عن هذا الإشكال كما لو دخل طالب أصولي في هذه المسألة، فعنده مادة تراثية يستطيع أن يوظفها.

ولأجل ذلك فالاستدلال بهذه القاعدة غلط أساساً في هذا الموضوع؛ بل هو خطأ يُنازع إجماعاً، بالإجماع، لكن لن تعرف إلا إذا دخل فقيه وبدأ يوضح هذه القضايا ويستثمرها؟

ما وجه منازعته للإجماع؟

لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ليست متعلقة بخصوص الأعيان؛ وإنما بخصوص الأسباب، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب بمعنى: «لن يُفْلَح قَوْمٌ وَلَوْ أَمْرَهُمْ امْرَأَةٌ» هل هو عام في كل ولاية؟ أو خاص بالولاية التي جرى فيها النزاع؟

أما القول أنه خاص ببنت كسرى؛ فهذا خصوص أعيان لا يقول به أحد؛ لأن هذا معناه: جعل الشريعة خاصة بأعيان، وهذا لا يقول به أحد، إلا فيما يتعلق باختصاص النبي -صلى الله عليه وسلم- بالأحكام، أما إذا جاء حكم أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- المسيء صلاته بإعادة الصلاة، هل بعموم اللفظ أو بخصوص السبب؟ لا يُقال: إنه خاص بهذا الرجل، وإلا أصبحت الشريعة متجهة إلى أفراد الناس وليس إلى عمومها، وهذا محل إجماع.

أيضاً الفقيه لما يدخل في هذه القضايا عنده تفصيلات لا يملكها غير المتخصص في القضايا الشرعية، فكثير من القضايا الشرعية يخوض فيها أناس غير متخصصين في الشريعة وفي الفقه، وليس لديهم تأسيس علمي شرعي، فيكتبون ويؤلفون ويبحثون، وطلبة العلم بعيدون عن هذا المجال الذي هو في الحقيقة مجاهلهم.

تجد أحياناً الخلط بين الشريعة والتاريخ، بعض المعاصرين يجعل التاريخ دليلاً على الأحكام الشرعية، فيقول: هذا الحكم جائز؛ لأن الخليفة هارون الرشيد فعله، ولأن شجرة الدر تولت الحكم وفلان.. يعني يجعل أحداث التاريخ دليلاً شرعياً؛ بينما من بديهيات طالب العلم الشرعي أنه يميز بين أحداث التاريخ وحكم الشريعة.

تجد الخلط بين الإرادة الشرعية والإرادة القدرية، فيستدل بأشياء وقعت قدرًا أو أخبرت الشريعة بوقوعها قدرًا على أنها جائزة شرعًا، ومن أوضح الأمثلة هنا: الاستدلال بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]؛ فيقرر أن هذا دليل على أن الشريعة قررت التعددية وقبلت بالحرية الفكرية بدون ضوابط، ما لم يقع ضرر؛ لأن الله قال: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] ولو أراد الله أن يلغي هذا الاختلاف لما أوجده وخلقته.

إذاً أراد الله هذا الخلاف، وهذا كلام شائع جدًا في الكتابات المعاصرة، لكن لا يمكن أن يقوله طالب علم، أو لعلي أصبح عبارتي لأنه قد قال بها بعض طلبة العلم، بسبب ضعف بعض طلبة العلم لما يدخلون أمثال هذه المجالات، يتأثرون بالأكثر كلامًا والأكثر شيوعًا، فلما يقرأ هذا الكلام وهو في الحقيقة طالب علم شرعي لكن ليس مؤسسًا تأسيساً قوياً، فإنه يتلغ أمثال هذه القضايا.

طبعاً هنا خطأ واضح؛ لأنه ثم فرقاً بين إرادة شرعية وإرادة قدرية؛ فالله سبحانه وتعالى أيضاً أراد قدرًا وجود القتل والظلم والزنا والخمر؛ فلن يقول عاقل: أن هذه كلها أصبحت مرادة شرعًا، هذا أمر بدهي، ويستطيع طالب العلم أن يوظفه بسهولة؛ لأنه عنده مادة تراثية عميقة يستطيع أن يساهم في هذه المباحث أكثر من غيره.

الأثر الرابع: من إشكالات ضعف البناء الفكري: رد بعض الحق.

فضعف التأسيس الفكري لبعض طلبة العلم يترتب عليه أن يردوا بعض الحق؛ نظرًا لعدم إدراكهم لتفاصيل ما في الموضوع الذي يُطرح، فقد يأتي موضوع معين يحتمل مفاهيم عدة، فنظرًا للقصور في فهم هذه الأمور، يردها طالب العلم جملةً وتفصيلاً، وهذا من الضعف والقصور الذي يؤثر على الحكم الشرعي.

حين يأتي مثلاً موضوع الحرية يقول بعض طلبة العلم: ليس هناك حرية في الإسلام، الإنسان عبد لله وليس هناك حرية في الإسلام، فهذا الخطاب قد هو يقصد معنىً صحيحاً، يعني عندما يقول: ليس هناك حرية في الإسلام، يقصد: ليس هناك حرية منفصلة؛ وإنما حرية منضبطة بقيود الشريعة.

لكن الحديث بهذه اللغة سيترتب عليه في أذهان المستمعين رد بعض الحق لسوء فهمهم لمثل هذا.

ومن إشكاليات القضايا الفكرية المعاصرة أنها تحتك بالواقع، وتلامس حاجات الناس، فغالبًا لا تكون من قبيل الباطل المحض، وإلا لما أثرت في الشباب، يعني يصعب أنها تروج وهي باطل محض، وإنما راجت لوجود أسباب موضوعية أثرت، لوجود دوافع معينة، نعم هي باطل؛ لكن فيها أجزاء من الحق، فيها أسباب صحيحة؛ فالذي يتعامل معها كقطعة واحدة سيؤدي إلى أنه يرد ما فيها من باطل وحق، وأما الذي يعني لديه تأسيس صحيح، فإنه يقبل الحق ويرد الباطل.

الأثر الخامس: أيضًا من إشكاليات آثار ضعف البناء الفكري: ركود المهارات

والقدرات الشخصية:

يستمر الشخص لا يستفيد، وتبقى مهاراته ثابتة لا تتطور وتحسن.

الأثر السادس: الخضوع للأمزجة والشعارات والصياغات الإعلامية المؤثرة:

فطلبة العلم في النهاية يعيشون في المجتمع، ويشاهدون القنوات، ويتابعون الإعلام، فضعف بناءهم الفكري يجعلهم خاضعين للأمزجة والشعارات والصياغات الإعلامية

المؤثرة، وهذا ما يفسر لك أن بعض طلبة العلم قد يتبنى أحياناً أطروحات منحرفة، فتستغرب كيف تبنى مثل هذه الفكرة وهي تخالف أصوله وتربيته؟ فتجده متأثر بصياغة إعلامية، متأثر بشعار، لكن المؤسس تأسيس فكري لا تعبت به هذه الشعارات يمنة ويسرة، فعنده وضوح يستعلي على هذه الشعارات.

الشعارات كثيرة جداً، في فضاءنا الإعلامي مئات الشعارات التي تشيع في فضاءنا الإعلامي، وتأسر كثيراً من الشباب والفتيات، يعني مثلاً يدعوك شخص إلى العقلانية ضد التقليد والجمود، تحرير المرأة ضد استعبادها، ثقافة الحياة ضد ثقافة الموت، وخذ من الشعارات التي يقولها الشخص ليس في مقام كلام عابر، بل يتبناها كمنهج، وهي حقيقة شعار ليست ذات مضمون حقيقي، هي مثل البالون الذي مع أدنى لمسة ينفجر فلا يبقى فيه شيء؛ والحقيقة الحديث في هذا المجال ذو شجون.

سأضرب مثلاً لذلك:

يقوم بعض الأفاضل مثلاً أحياناً بالقيام بالإنكار، أو الاحتساب، أو النصح في بعض القضايا الشرعية، مثل الإنكار في قضايا الحجاب مثلاً، أو الاختلاط، الفساد الأخلاقي.. ونحو ذلك، تعودنا دوماً في ساحات التواصل الاجتماعي وغيرها أن هناك نبرة تقليل وانتقاص واستخفاف بهذا الأمر، يرونه من الانشغال بالهوامش عن قضايا الأمة الكبرى، وأن هناك أسئلة أكثر إلحاحاً وأكثر أهمية.. ونحن منشغلين بالقضايا الهامشية... وإلى آخره.

يعني بعض طلبة العلم تركبه الصياغة هذه، وأحياناً يحملها على أن في الشريعة تقديم الأولى على الأقل أهمية، والواجب على المستحب، والضرورة على الحاجة، وربما ذكر هنا، كلام الشاطبي في المقاصد.

الحقيقة أنها لعبة شعار، لسنا أمام مسألة فقهية، تبرهن لها بكلام للشاطبي، وتقدم فيها كلام للقراني، بل أنت أسير شعار عبث بعقلك، وإلا فما الذي جعل هذا هامشاً وهذا أصل؟ لماذا لا تتحرك هذه الدافعية لتهميش بعض الأمور إلا في القضايا الشرعية؟

بينما لو تكلم أحد عن كرة القدم مثلاً، لن يقول له: قضايا هامشية، لو فتح صفحات تنكيت وظرافة؛ لعدّ هذا من أساليب المتعة في الحياة وكسب الشباب وأنه شيء إيجابي، لن يتكلموا عن قضايا الفن والرقص والطرب.. بأنها من قضايا الهوامش، إنما القضايا الشرعية المتعلقة بملفات معينة هي التي تسمى هوامش، وهذه تسمى أصول.

طبعاً أنا لا أنكر إنه قد يُقال: إنه ثم تقصير في هذه الأبواب، وأنا أحثكم على أن تجتهدوا في هذه الأبواب، لا إشكال في هذا، لكن حقيقة هذا الشعار أنه لا يدعوك إلى الحث على القضايا الأصولية أو المهمة، إنما الهدف منه دفن هذه القضايا، يعني لو سكت لما قال لك شيء، ولا حثك على القضايا الكبرى، ولا فتح معك هذه الملفات، لكن مجرد أن يأتي شخص يفتح هذه الملفات، يأتي الحديث معه في قضايا أهم.

إذاً هاهنا شعار، يجب أن طالب العلم يتعالى عن الخضوع للشعارات لئلا يستغفل فيأتي بالبحث الفقهي والأدلة والنقاشات، والحقيقة كلها شعار وموجة ومزاج.

وأمثلة الصياغات الإعلامية المؤثرة لا يسلم منها أحد، وهي كثيرة يعني جداً، ومن الأمثلة حتى تتضح أكثر، مثلاً أحياناً يكتب بعض الناس أن الشخص منا إذا ذهب خارج المملكة مثلاً، قد يدخل في مكان فيرى اختلاطاً ويرى محرمات، فلا يحرك ساكناً، فإذا رأى هذه الأشياء في بلده، أصابه الغضب والعنفوان، ثم يتكلم أن دين الإسلام واحد وليس ثم فرق باختلاف المكان، ثم يبدأ بذكر اللوازم والقضايا الكبيرة التي تُبنى على هذا الأمر، ويركب في هذه الموجة من يركب، والحقيقة إن هذا الأمر لو نُظر نظراً موضوعياً، فطبيعي أن الشخص لا يكون موقفه في الإنكار متجرداً لا ينظر إلى عوامل الزمان والمكان.

طبيعي، أن يتغير موقف الشخص في مكان فينكر بشدة وفي مكان لا ينكر، وفي مكان يترك، فاختلاف الحال يؤثر في طبيعة الحكم، والأمثلة قد تطول، الهدف منها أن هناك صياغات وأمزجة وشعارات يجب أن يستعلي الشخص عليها، لا يكون أسيراً لها تعبت به بذات اليمين وذات الشمال، يعني قبل مائة سنة تقريباً، كانت قضية المعجزات

من أكثر القضايا المشكّلة على الفكر الإسلامي، يعني لدرجة أن تخرج مؤلفات تسعى إلى سحب موضوع المعجزات من الشريعة، بحيث تُفسر المعجزات الواردة في القرآن والسنة تفسيراً طبيعياً.

يعني ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]؛ يُفسر الحادثة بأنها ميكروبات وجراثيم، تجعل الحادثة كأنها وفاة طبيعية، عصا موسى، والمعجزات التي وردت في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- خروج الماء بين يديه عليه الصلاة والسلام، كل المعجزات تُفسر تفسيراً طبيعياً، وتكون المعجزة الوحيدة هي القرآن، محمد هيكّل يؤلف كتاب (حياة محمد) يسعى إلى إبعاد كل معجزات القرآن، مسألة كانت مقلقة، حتى قال بعض أهل العلم في ذلك الفترة -عفا الله عنه- عبارة شديدة، لا تليق حتى بمكانته وعلمه، قال بمعنى كلامه: لو خلا القرآن من المعجزات؛ لكان تأثيره على الناس في ذلك الزمان أشد، عبارة في غاية السوء حقيقةً عفا الله عنه، لماذا لأنه المزاج في ذلك الوقت كان مزاجاً لا يتقبل المعجزات، يعني مزاج مادي، وحديث عهد بمكتشفات حديثة كثيرة، فأصبح أي شخص يفسر أمراً خارج المادة يعبر عن جهل وعدم فهم، فأصبح من له حرص على نفع الناس وهدايتهم يجتهد في تخفيف النفور من هذه الأحكام من خلال التأويل والتحريف وغيرها.

حتى جاء الشيخ مصطفى صبري -رحمه الله- فألّف كتاباً مشهوراً (موقف العلم والعالم والعقل من رب العالمين) في أربعة مجلدات، يلفت نظرك في هذا الكتاب إن الجزء الأكثر يدور حول جزئية المعجزات بشكل أو بآخر، يذهب ثم يعود إليها، طبعاً بنفس تأصيلي ودفاعي يبين خطورة هذا الإشكال، لماذا؟ لأنه كان يعيش زمان، يعيش هذا القلق من هذا الاشكال.

السؤال: أين ذهبت هذه المسألة الآن؟ ما حضور المعجزات في الخطاب المعاصر الآن؟ ليس له ذاك الصخب؛ بل حتى بعض عتاة العلمانيين ربما لم يعد هذا السؤال مقلماً

لهم، ليس بالضرورة أن يثبتوها، فهي موجة مضت وشعار انتهى، لكنه انتهى بعد ماذا؟ بعد ما أثر وحرف وغير في توجهات وآراء.

أيضًا نحن في أيامنا نعيش في موجات، هذه الموجات ستذهب، ويذهب معها أقوال وآراء وأشخاص خضعوا لهذا المزاج فذهبوا حين ذهب هذا المزاج والشعار، والواجب على طلبة العلم أن يستعلوا على مثل هذه الصياغات، ويكونوا أعمق وأوعى من الخضوع لها.

الأثر السابع والأخير من آثار ضعف البناء الفكري: السطحية،

التي قد يقع فيها بعض طلبة العلم نظرًا لأن الشخص المفكر يعمل بقواعد عدة في وقت واحد، فأحيانًا الشخص الذي يقرأ قراءة سطحية يكون عنده معطى واحد؛ لكن الموضوع يحتاج إلى معطى واثنين وثلاثة وأربعة، فالمؤسس فكريًا يستحضر عدة قواعد في وقت واحد، فلا يقع في مسالك سطحية وبسيطة، يقع فيها بعض طلبة العلم نظرًا لقصور في هذا الأمر.

يعني مثلاً:

ضرورة التمييز بين الخطاب السياسي والخطاب الشرعي أو الخطاب الديني والخطاب الإعلامي، فليس بالضرورة أن كل ما تعتقده شرعًا يجب أن تقوله بحذافيره وبكل قناعاته في كل زمان وكل مكان؛ لا؛ طالب العلم الواعي يعرف إن لكل زمان ما يناسبه، فقد أسكت في مكان عن كلام، لا أفعل ذلك في مكان آخر، قد أتوسع في مكان ما أختصره في غيره، وهذا ليس من قبيل المراوغة أو عدم الوضوح، لا؛ بل هذا من الفقه والحكمة، فالشخص يراعي أفهام الناس وأذهانهم، وقصور بعض طلبة العلم عن هذا الأمر يؤدي بهم إلى إشكالات، فتجده لا يميز هو في قناة فضائية، أو في درس في المسجد، أو في مجلس خاص مع زملائه، فيتحدث بنفس النبرة ونفس اللغة وبنفس الكلام، وهذا طبعًا غير صحيح، المضمون لا يتغير لكن الحديث عن اللغة، والطريقة، لأجل ذلك كما هو المأثور عن الصحابة -رضي الله عنهم-: إنك لن تحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا لكان لبعضهم فتنة.

فالحديث الذي تنفر منه عقول بعض الناس يحدث له فتنة، أحياناً يقول بعض الناس ما هو الجواب؟ يعني هذا السؤال محرج، كيف أجيب عن هذا السؤال؟ مثلاً أنا مبتعث في مكان وفي مدرسة معينة، يسألوني هذا السؤال، أنا محرج كيف أجيبهم؟ بكل وضوح ليس بالضرورة أن تجيب على كل الأسئلة، فكونك غير قادر على إيجاد إجابة مقنعة ومؤثرة لهم لا يسوغ أن تجيب بأي شيء أو تحرف الأحكام، لأن بعض الناس عنده تلازم، وهو أن أهم شيء أن يقدم لهم إجابة مقنعة، فقد يأتيه سؤال محرج لا يعرف الجواب المقنع فيه فيحرف الشريعة لأجل أن يقدم إجابة مقنعة، لا، المقصود منك ليس تقديم إجابة مقنعة، المطلوب منك تقديم الحكم الشرعي بإجابة مقنعة، يعني لا يكون نظر طالب العلم أن أهم شيء أن أقنع الناس، لا؛ إنما تقنع الناس بأحكام الشريعة، فإذا وجدت صعوبة في حكم، أو زمان، أو مكان.. لست مكلفاً أن تتحدث عنه، قد يكون غيرك أقدر.

ولأجل ذلك الخطاب الإعلامي مثلاً خطاب ليس سهلاً، ليس سهلاً إن يأتي طالب علم فيخرج على قناة فضائية، فيتكلم في الأحكام الشرعية السياسية يعني بكل وضوح، ويأتي بكل الأحكام، هذه تحتاج إلى ذكاء وفهم ومعرفة، أو يضطر بعض الناس أن يحرف الشريعة حتى يقدم خطاباً مناسباً إعلامياً، وهذا طبعاً لا شك أنه خطأ.

أطلنا في الحديث حول آثار ضعف البناء الفكري، ولعل هذا يعزز في أنفسنا ضرورة البناء الفكري لطالب العلم الشرعي، يأتي بعد هذا التمهيد الطويل السؤال: **ما هو البناء الفكري الذي تريد الوصول إليه، وتشعر أنه يجب أن يعزز في نفوس طلبة العلم أدواته ومعارفه؟**

نستطيع أن نقول: أن البناء الفكري له ثلاثة جوانب، يعني يقوم على ثلاثة أركان، أو إن أحببت هو يقوم على ركنين ونتيجة، فالركن الثالث قد يكون ركن أو نتيجة:

الركن الأول: الأدوات.

والمقصود أن يمتلك طالب العلم أدوات شخصية متعلقة بالقضايا الفكرية، أو أدوات ذاتية شخصية يستطيع توظيفها في أي مشهد وأي قراءة لأي حدث.
ما هي هذه الأدوات؟
لدينا أدوات كثيرة:

الأداة الأولى: منهجية الاستدلال:

يعني يجب أن يكون طالب العلم لديه منهجية استدلال صحيحة وقوية ومحكمة، وعندما نقول: منهجية الاستدلال، قد يتبادر إلى ذهن طالب العلم أنه يأتي بدليل وبيّن وجه الاستدلال وهذا صحيح، لكن هذه الدرجة يعني نقول: أنّها الدرجة الضرورية من الاستدلال، لكننا نريد من طالب العلم ما هو أعلى من ذلك، وهو:

أولاً: أنّ الاستدلال يجب أن يكون دليلاً صحيحاً، فلو أتى بشخص واستدل بدليل ليس بدليل، يعني استدل بالتاريخ مثلاً، استدل بحديث ضعيف، هذا ليس دليلاً في الأساس، قد يتجاوزها طالب علم فيستدل بأية من القرآن، أو يستدل بحديث صحيح، هل يكفي؟ لا؛ يجب أن يكون الاستدلال صحيحاً، يعني يجب أن تذكر المعنى الذي تذكره من الدليل صحيح، ولا يكفي هذا.

ثانياً: يجب أن يكون الدليل الصحيح الذي استدلت به موافقاً للمسألة التي تستدل بها، قد تكون الآية القرآنية صحيحة، واستدلالك صحيح لكن ليس له علاقة بالمسألة، أو هو خاص والمسألة عامة، أو المسألة لها جزئين وأنت أتيت بجزء واحد، فليس مجرد أن تأتي بدليل صحيح ينتهي عندها الأمر، لا؛ يجب أن يكون الدليل موافقاً.

ثالثاً: يجب أن لا يوجد معارضٌ له أقوى منه، بمعنى قد يكون دليلك صحيحاً والمعنى صحيح، لكن هناك شيء أقوى منه، وهذا أيضاً مرحلة متقدمة يجب أن يستحضرها طالب العلم في استدلالاته كلها، إن لا يكتفي أن يورد الدليل، لا؛ أورد

الدليل والاستدلال وأتأكد من وجه الدلالة، وفي نفس الوقت أتأكد أنه ليس هناك دليل أقوى منه.

وهذه المنهجية السائدة في المدارس الفقهية، ويسلكها العلماء في نزاعاتهم الفقهية، لماذا العلماء يتنازعون في الفقه؟ ليس لأن ما عندهم أدلة، لا؛ بل لأن كل مذهب يرى أن دليله أقوى من الأدلة الأخرى، هو لا ينفي أن دليلك صحيح، لكن يقول: عندي من الأدلة ما هو أقوى من أدلتك، وهذا يحتم على طالب العلم أن يكون اطلاعاً شمولياً على أحكام الشريعة، لا يطلع فقط على جزئية معينة؛ إنما يطلع على النصوص جميعاً؛ ولهذا من يطلع على جزئية معينة في الاستدلال يقع في إشكالات كبيرة.

الخارج مثلاً عندما يستدلون بقول الله تعالى: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]**؛ هذه الآية عندهم تدل هل تدل على كفر القاتل، ظاهرها أن القاتل محلد في النار، والمخلد في النار كافر، ما الخطأ الذي وقع في الخوارج؟ لاحظ! ليس الخطأ فقهياً، خطأ مذهب من أبطل المذاهب، ولاحظ! يستدلون بظواهر القرآن، فالشخص الذي ليس عنده منهجية الاستدلال، قد يرتبك، يقول: والله فعلاً أمامنا دليل صحيح مع الخوارج، لكن عند من يمتلك منهجية الاستدلال يقول بكل وضوح: لا يُقرأ القرآن فتقطعه قطعة قطعة، ما تقرأ القرآن آية آية، تقول: ما هي ظاهر هذه الآية، لا؛ إنما يُقرأ القرآن نظراً واحداً، ويقرأ القرآن بتفسير النبي -عليه الصلاة والسلام- فعندما نقرأ القرآن بمجموع الآيات، نقول: ليس ظاهر الآية هو هذا، ولأجل ذلك أجمع الصحابة على بطلان هذا التفسير.

وكان سبب ضلال الخوارج هو الخطأ في الاستدلال ومنهجية الاستدلال القائمة على جعل القرآن عَضِينَ، وتقطيع الآيات وفكها عن بعض، فالصحابي يقرأ القرآن، ويجمع الآيات الأخرى، ويجمع فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- وقوله، فيفسر القرآن كله تفسيراً واحداً يبطل مثل هذه الاستدلالات.

ويظهر إشكالية منهجية الاستدلال عند الحدائين المعاصرين، تجد عندهم نفس الطريقة، يعني يأخذ آية، يأخذ حديثاً، فيقطعه عن سياقاته، فقد يستدل بحديثه ظاهره أنه قد يدل على مقصوده، لكن نفس إشكالية استدلال الخوارج، لا يكفي أن تستدل بحديث أو آية تقطعها عن مجموع الأدلة وعن سياقها الذي خرجت منه، ولأجل ذلك لا يتفق العلماء على حكم إلا وهناك دلائل قاطعة على فساد هذه الاستدلالات.

يعني مثلاً يستدل بعض المعاصرين بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]؛ يستدلون به على ماذا؟ على أن من آمن من اليهود والنصارى وغيرهم فهو من أهل الجنة.

طيب، لو لم يكن عندنا إلا هذه الآية، ألا يحتمل هذا المعنى أن يكون معني صحيحاً، يعني لما نرجع لكتب التفسير نجد إن هذه الآية تحتمل معنيين: المعنى الأول: من كان يهودياً أو نصرانياً، ثم أدرك النبي -صلى الله عليه وسلم- فأمن به.

المعنى الثاني: من آمن بنبيه قبل بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

هذان المعنيان لتفسير هذه الآية، طيب لو اعترض عليك شاب، وقال لك: ممكن الآية تدل على المعنى الثالث، وهو: من كان يهودياً أو نصرانياً وأدرك النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني الآية هل تنفي هذا؟ الذي يقرأ القرآن آية واحدة ولا يعرف أي شيء آخر، يقول: والله فعلاً الآية مشكلة، يرى أن عندهم أدلة قوية، لماذا؟ من أين أتى هذا الإشكال؟

جاءه من منهجية الاستدلال، يعني أنت في الحقيقة لا تستدل، فالبنية الاستدلالية الصحيحة ليس أن يذكر أي فهم من آية واحدة وخلص، بينما لو فتح الشخص المصحف، وقرأ القرآن لوجد عشرات الأدلة التي تثبت أن هذا الكلام باطل وفساد، وأن هذا الاحتمال الظاهر الثالث لو دخل في مفهوم هذه الآية لهدم القرآن كله، لأجل ذلك

لن تجد فقيهاً في الدنيا كلها من بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قبل عصرنا، لا تجد منتسباً إلى الفقه يقول هذا القول، يعني تجد للفقهاء أقوالاً شاذة في الديات وفي الجنايات، وفي غيرها، لكن لن تجد أحداً قال بهذا القول أبداً، لماذا؟ لأنه يعرف إنه لو قال هذا القول لهدم الشرع كله، بينما بعض المعاصرين يقولون بهذا الكلام، وقد يتسرب إلى بعض طلبة العلم بسبب منهجية الاستدلال التي أصبحت تنظر في الدليل، بمعزل عن المنهجية الشرعية المكتملة التي يجب أن يستدل بها طالب العلم.

المثال الثالث، وهو يعني من ظرائف وطرائف بعض المعاصرين، وهو أنه لما يستدلون بموضوع الحرية الفكرية، أن المرتد له حرية فكرية بمعنى إنه له حرية الردة، من حقه أن يرتد، ويدعو إلى أي دين يريد، والنظام الإسلامي يكفل له.. الخ.

المشكلة هنا ليس أنه يقول: القول الآخر قول جمهور الفقهاء، وأنا أرى قولاً آخر وعندني بعض الفقهاء معي، وهو والرأي الراجح عندي، لا؛ يقدم بعض المعاصرين هذا الكلام، وللأسف أن بعضهم من المنتسبين للفقه ومن الفقهاء، يقول: أن هذا الأمر من الأصول القطعية المحكمة في الشريعة، ودل عليه عشرات الآيات، يعني عندنا تقريباً كم؟ يعني عندنا أربعون آية كلها تدل على هذا الأمر، معناه أننا أمام حكم مثل توحيد الربوبية أو توحيد الألوهية، حكم قطعي، اللافت أنه لم يوجد فقيه في الدنيا قال هذا الكلام، يعني أربعون آية في القرآن خفيت على كل العلماء طيلة هذه القرون، حتى اكتشفها بعض المعاصرين، يعني الشخص الذي يحترم نفسه ويقدر الاستدلال حقه ما يقول هذا الكلام، ليس من منهجية الاستدلال أن يقع الشخص في مثل هذه المزالق.

يعني بإمكانك أن تقول: والله هذا القول مثلاً كان الفقهاء يقولون به لكن تغير الزمان الآن، والفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان، يعني هذا مدخل باطل، لكنه مدخل فيه قدر من العقلانية والانسجام، أمّا أن تجعل القرآن كله يدل على هذا القول، فهذه بنية استدلال مضروبة تماماً.

ورابعاً من الأمور المهمة في منهجية الاستدلال: وهي ضرورة فهم منازع الاستدلال ولا يكتفي طالب العلم بفهم القول فقط، لا يكفي؛ يجب فهم القول ولماذا قال بهذا القول؟ هذا أهم، يعني أهم من فهمك للقول أن تعرف المستند والمبرر لهذا القول؛ لأنه هذا يتغير به النظر للحكم.

بعض الإخوة يقسم الناس بالأقوال، فلان يقول بهذا القول، فيجمع كل القائلين بهذا القول في سلة واحدة، وهذا خطأ، يجب أن نعرف لماذا قالوا بهذا القول؟ فهذا يؤثر في تفسيرك للحكم، يعني قد يكون هناك قول معين يجتمع فيه زنادقة في أقصى الطرف مع بعض طلبة العلم، فكوني أجمعهم كلهم على أنهم قالوا بقول واحد هذا من الخطأ والغش وسوء الفهم أن أفعل هذا.

ومن الاستدلال الصحيح أن أميز منازع الاستدلال، صحيح هم قالوا بقول واحد لكن منازعهم مختلفة.

يعني مثلاً لما تأتي لمسألة شائكة وحصل فيها نزاع كبير، مسألة الاختلاط بين الرجل والمرأة، ليس صحيحاً أنني أساوي القائلين بهذا القول، فقد يقول بعض الناس بالاختلاط، تقول له: ما الدليل؟ ما المستند؟ يقول: والله المستند إنه الأصل في العلاقة، إن علاقة طبيعية، وينبغي عدم الشك بين الرجل والمرأة، والحرية اللي لهم حرية الاختيار.. الخ، هذا يُعتبر منزع ماذا؟ منزع منحرف تماماً ورؤية لا تعترف بالشرع، ولا ترفع بالنص رأساً. قد يأتي شخص آخر يقول: لا؛ بل هو الضرورة المعاصرة، والمرأة لا تجد عملاً، فيجب أن يُتاح لها عمل للضرورة.. الخ، هذا منزع مختلف.

قد يأتي شخص يقول: الاختلاط هو الموجود في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- وعهد الصحابة، والقول بجرمة الاختلاط هذا قول بدعي... الخ، أيضاً هذا منزع ثالث.

وهكذا ستجد أنه قول واحد يجمع عدة اتجاهات؛ فلا يكتفي الشخص بالقول؛ بل يجب أن يستفصل ويستفسر ما المستند؟ ما المبرر الذي هو في الحقيقة يكشف منهج الاستدلال الذي يعتمد عليه كل شخص.

الأداة الثانية: أيضاً لدينا من الأدوات: مهارة التفكير.

أن يكون عند طالب العلم مهارات تفكير جيدة يستطيع أن يحلل، ينظر، ، ويُمكن الاستفادة من علم التربية الحديث، فهناك مادة ثرية في طرائق التفكير ومهارات التفكير فيما يتعلق بأنواع التفكير، ولها أمثلة ولها ضوابط، يعني يطلع الشاب أو طالب العلم عليها، ويحاول أن يستفيد منها جيداً، مع أهمية الاستفادة منها وليس التطبيق الحرفي لها، يعني أقرأ في التفكير الإبداعي، أعرف ما مفهومه؟ ما محاوره؟ .. وغير ذلك، لكن لا أفعلها بطريقة يعني الآن أنا سأفكر تفكيراً نقدياً، فيتحول وكأنه رجل آلي؛ فهذه حقيقة ليست مهارة، إنما أن يتشرها الشخص ثم يستفيد منها في مواقف جديدة، مع بقية الأدوات والمهارات، حتى يصل إلى نموذج متميز وممتاز في مهاراته الفكرية.

الأداة الثالثة: القدرات الكتابية، والأدوات البحثية من الحجاج والإقناع،

التفسير والتحليل، وغيرها:

يعني عادة البحث الشرعي أنه يركز على الأحكام، هذا حلال، هذا حرام، هذا كفر أصغر، هذا كفر أكبر، فقد يغفل طالب العلم عن جانب التفسير والتحليل بما يضعف قدراته، فمهم إنه يبقى هذا الأمر حياً.

ومن المهم أن يحرص طالب العالم على أسئلة من قبيل لماذا حصل هذا، وكيف ندفعه؟ وما نتيجته؟ وما الذي حفز إليه؛ فيدخل جانب التفسير والتحليل في البحث، أيضاً جانب التصنيف والتبويب والتقسيم، كما أننا ندرس كتب الفقهاء، ونجد أنهم أبدعوا تصانيف وتبويبات وتقسيمات ما كانت موجودة قبل، يعني كل طبقة من أهل العلم يبدع جانباً في التأليف لم يكن موجوداً عند من سبقه.

هذا هو الأمر الأول، وهو الركن الأول من أركان البناء الفكري، وهو ما يتعلق بالأدوات.

الركن الثاني: المعارف.

يعني طالب علم يحتاج إلى معارف، علوم معاصرة يضيفها إلى مخزونه الشرعي، حتى يكون بناؤه الفكري قويًا، يحتاج إلى أن يعرف تاريخ الأفكار وأصولها، يعني أي فكرة من الأفكار المعاصرة: الليبرالية، العلمانية، الحداثة، العقلانية، التنوير،.. أي فكرة، المهم يعرف تاريخ هذه الفكرة، نشأت متى؟ من أول من قال بها، ما الدوافع التي حركت حدودها؟ من أبرز اتجاهاتها؟ .. إلى غير ذلك.

مهم أن يعرف مداخل العلوم الإنسانية، المعارف المتعلقة بعلم النفس، علم الاجتماع، الاقتصاد، السياسية، يكون عنده اطلاع عام، ما موضوعات هذا العلم، ما أبرز الكتب التي فيه، ما أبرز الموضوعات التي يبحثها.. إلى غير ذلك.

أصول النظريات الحديثة أيضًا يحتاج إنه يكون عنده اطلاع عام حولها، وأقول في هذه الجزئية مثل ما قلنا سابقًا، المقصود ليس أن يأخذ النظرية ويطبقها مباشرة، وهذه من الأخطاء التي يقع فيها بعض الناس، إنه إذا درس نظرية في كتاب، يبحث فقط عن واقع حتى يطبقها، فيقع أحيانًا في أخطاء؛ لأن النظريات في الغالب نظريات مركبة، يعني تحتاج تعمل أكثر من نظرية في وقت واحد، فالذي يأتي بأي نظرية ويطبقها، يعني هو عنده قاعدة جاهزة يبحث عن أي مثال حتى يطبقها، يعني كما قيل في المثال الطريف: إذا كنت مطرقة فستري كل شيء مسمار، يعني ليس عنده تمحيص لأنه عنده قاعدة فيبحث عن أي مثال ليطبقه عليها، فيقع في مزلق، الخطأ أنه يجب يكون عنده مجموعة قواعد تعمل في وقت واحد، وليست قاعدة واحدة.

مثال ذلك:

يعني عندنا من القواعد الشرعية قاعدة بناء الشريعة للمصالح، وهذه قاعدة صحيحة، وتضافر كثير من العلماء على إقرارها، يعني العز عبد السلام يقولها، وتجدها في

كتابات غيره، أنه الشريعة قائمة على المصالح، الخطأ في ماذا؟ الخطأ أن يكون الشخص ليس عنده إلا هذه القاعدة، فيأتي إلى أبواب الشريعة فيعبث فيها ويقطعها ويمزقها؛ لأنه ليس عنده إلا قاعدة واحدة؛ بينما الشخص الذي يمتلك أدوات وقواعد وأصول، هذه قاعدة تعمل مع أخواتها من القواعد، ومع قيودها، فيكون عنده أدوات كثيرة تعمل في وقت واحد، بينما الذي ليس عنده إلا هذه القاعدة من السهولة أن يحرف أي حكم.

أيضاً مثلاً يأتي شخص، فيأتي بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» وهذا معنى شرعي صحيح وقاعدة شرعية صحيحة، لكن نفس المشكلة أنه ليس عنده إلا هذه القاعدة، فإذا مرت عليه أي حادثة، فمباشرة ينزل الحادثة على أي واقعة بينما الصحيح أنه يستفيد من هذه القواعد، لكن يجب أن تعمل في وقت واحد، كيف أن تعمل في وقت واحد؟ هذه يعني من المهارات والتي تصلنا..

الركن الثالث: وهي الملكة.

الملكة ممكن أن نقول: هي ركن ثالث مع الأدوات والمعارف، وممكن نقول: هي نتيجة، يعني نتيجة وجود أدوات جيدة عندك، ومعارف متنوعة، نتيجتها أن تتحقق ملكة، هي ملكة حاضرة معه في كل القضايا وفي كل الأقوال، الملكة تقوم على وجود وعي عند الشخص بطرائق الاستدلال، يعرف كيف الناس يستدلون، وعي بأحوال المخالفين ودرجاتهم، وعي بواقع الناس، وعي حين ينظر في أي مسألة ما المطلوب منه! وعي باللوازم والمآلات.

لما يبحث أي مسألة سيبحثها بحثاً جيداً، لماذا؟ لأنه عنده ملكة جيدة، يعني ربما تجد بعض طلبة العلم يبحثون مسألة معينة، جميعهم يبحثون في نفس الكتب، وبنفس الوقت، وبنفس عدد الصفحات، لكن تجد الفرق بينهم مثل ما بين السماء والأرض، السبب: الملكة، أن أحدهم عنده ملكة لما يبحث يعرف ما المطلوب منه؟ ما هي لوازم

القول؟ ما هي حدوده؟ ما هي حاجاته؟ .. إلى غير ذلك، كيف حصلت له الملكة؟ هي نتيجة تفاعلات كثيرة من المهارات والمعارف وغيرها.

أيضاً من الملكة: الاتزان: يكون عند الشخص ملكة اتزان شخصي، اتزان بمعنى اعتدال لا تميل نفسه ذات اليمين وذات الشمال، لا يحتد ويغلو ويتطرف ويزيد ويقسو، ولا يترخص ويتساهل ويتهاون؛ إنما في طبيعة تفكيره واستدلالاته ونقاشه فيها جانب اتزان واعتدال.

وهنا إشكالية الأثر النفسي على الناس جميعاً، أن الأثر النفسي يؤثر على الناس جميعاً، وطلبة العلم هم من الناس، فبعض الناس قد تؤثر حالته النفسية على بحثه وعلى آرائه، فيجب أن يدرك الشخص خطورة الحالة النفسية على المفكر وعلى الشخص، يعني جملة كبيرة من الإشكالات المعاصرة منزعها في الحقيقة منزع نفسي وليس منزع بحث عقلي وموضوعي.

يعني لما يأتي شاب مثلاً يكون على جادة معينة، ومحترم للشريعة، ومعظم للنصوص، ثم فجأة في ظرف أسبوع أو أسبوعين أو شهر أو شهرين، ينقلب رأساً إلى عقب، ويبدأ يتكلم عن رد السنة، وإنكار خير الأحاد، وتأويل القرآن، و.. و.. الخ.

هذا لا يمكن أن نفسره تفسيراً موضوعياً، لسنا أمام بحث، إنما الإشكالية إشكالية نفسية شعر بذلك أم لم يشعر، فإشكالية الاتزان هذه مؤثرة جداً، ومن المهم أن نعترف جميعاً بهذا الأثر، وإنه ليس سبب نلاحق الناس بها، لا، يجب على المتحدث قبل المستمع أن يعرف أن الحالة النفسية تؤثر علينا جميعاً، وأنتي وغيرنا قد نتبنى قولاً، أو ننصر موقفاً، أو نقف مع حالة معينة لضغط نفسي معين، أو لأنها توافق أهواءنا، وهنا واجب إن الشخص يتجرد ويراجع نفسه، ويراجع نيته، حتى يصل إلى المنهج الصحيح والموقف الصحيح، وهذا يعني أنه لا يمكن لعاقل أن يبرئ نفسه، يعني ما يمكن لعاقل في أي موقف أن يقول: أنا هذا الموقف وفتته كله لله، وموقفني ليس فيه أي شائبة، لا يمكن، لأن الهوى لا يسلم منه أحد، وإنما الموفق من يجاهد نفسه في عدم الوقوع في غائلته.

أيضاً من الملكة أهمية الفحص ويعني التمييز: إن الشخص يكون عنده فحص وتميز للقضايا وليس كلاماً في الجملات.

أيضاً من الملكة الاستعداد النفسي للاستفادة: وهو يجب أن يكون طالب العلم من ملكته أن يكون متهيئاً للاستفادة من أي أحد، وفي أي ظرف، وفي أي زمان، يعني اذا سمع أحداً يتكلم في موضوع ينصت ماذا قال؟ وما وجه كلامه؟ هل كلامه صحيح؟ ما دليله؟ يكون عنده روح مستعدة ومتقبلة لأي كلام أنها تبحث عما فيه من حق، وهذا سيكون مفيداً جداً لطالب العلم، بينما بعض الناس عنده أساساً استعداد نفسي لعدم الاستفادة، فهو يدخل في الموضوع وعنده النتائج جاهزة والأحكام جاهزة، يعني هو مثل إجراء الاختبار مع أن نتائج الرسوب والنجاح معدة سلفاً، بينما المفترض أن الشخص يكون عنده استعداد نفسي أنني أستفيد من أي أحد، وهذا هو يعني من الملكة المهمة التي تعين الشخص على الوصول للحق، والاستفادة من أفكار وآراء الناس.

أيضاً مراعاة اختلاف الزمان والمكان والأحوال والظروف، وآثاره: فيكون مستحضراً له في كل جانب، الموازنة بين المصالح، فالملكة تجعل الشخص يوازن بين المصالح، فإن الشخص يعرف الصالح من الفاسد هذه واضحة، لكن التحدي أن يوازن بين المصالح نفسها.

بعض الناس لا يحسن هذا الأمر، عنده إما روح مثالية كاملة أو لا شيء، إما أسود أو أبيض، وهذه ملكة تورث الشخص اتزاناً وموقفاً صحيحاً.

يعني أحياناً بعض الناس تحدثه عن واقع معين فيه مصالح معينة، لا يحسن يتحدث في هذا الموضوع، إنما ينتقل لك في واقع آخر مثالي، تقوله له: ما الموقف في هذا الواقع؟ يقول: الموقف أن نفعل هذا، تقول: هذا في الحالة المثالية، لكن هذه الحالة ليست موجودة هنا، ما الموقف في هذا الحال أن نفعل هذا أم نفعل هذا؟ يقول: لا؛ أن نفعل هذا، يعني هنا تكون الفكرة ليست مترنة.

مثال ذلك:

يعني دومًا ما يشيع التشنيع على موقف الفقهاء -رحمهم الله- في موضوع القول بصحة حكم المتغلب، يعني القول السائد فقهيًا بعد القرن الأول هو القول باعتبار حكم المتغلب وعدم الخروج عليه؛ لحفظ مصالح الناس ودمائهم وأموالهم وصيانتهم عن الهرج والمرج والفتن.

يأتي بعض الناس يقول: لا؛ هناك حل آخر أفضل، ما هو؟ العودة إلى سنة الخلفاء الراشدين، ما معنى العودة إلى سنة الخلفاء الراشدين؟ يقول: بمعنى أننا نريد حكم الشورى بلا سيف، بلا تغلب، طيب نحن الآن لا نتكلم عن حالة مثالية، نتكلم عن واقع، كيف نعود إلى سنة الخلفاء الراشدين بالواقع؟ إما بالقتال، وإما تلغي القتال، اختر واحدة منها، لا ترحل إلى مسار بعيد، إذا فكر الواحد بهذا التفكير، سيجد فعلاً إن هذا القول هو القول المنطقي والعقلي والصحيح، لكن إشكالية غياب الموازنة، يدع الشخص يهرب من الواقع ويفكر في مجال آخر بعيد عن الواقع الذي أنت أمامه.

فأنت في واقع معين لا تملك إلا أمرين: إما تدفع المنكر هذا بمنكر آخر، أو تقره، أو تتركه، يقول واحد: لا؛ أطبق الشريعة كاملة، الصورة لا تحتل إلا هذا أو هذا، إذا كان تحتملت الصورة الثالثة فهذا شيء جميل، لكن هو يقر إن الصورة لا تحتل، ومع ذلك يصر على الصورة التي لا يرى أنها ممكنة التطبيق، وهذا لا شك إنه خلل في الملكة التي يجب أن تراعي موضوع الموازنة بين المصالح والمفاسد.

أيضًا من الملكة العقل والإدراك: أن الإنسان يكون عنده عقل وإدراك وتبصر للأمر.

مستويات العناية الفكرية لطالب العلم:

وهذا محور مهم؛ لأنه يجب عن إشكالية ماذا يقرأ طالب العلم من الكتب الفكرية، هل يعني الإغراق فيها، وإلى أي حد، وحتى نفصل الحديث في هذا الموضوع؛ يعني نقسم الاهتمام والعناية الفكرية إلى ثلاثة مستويات، فيما يتعلق بطلبة العلم تحديداً، يعني لا

نتكلم عن عامة الناس، ولا نتكلم عن النخب المثقفة من غير طلبة العلم، نحن نتحدث عن طلبة العلم الشرعي من حيث اهتمامهم بالعناية واهتمامهم وعنايتهم بالجوانب الفكرية.

نستطيع أن نقسم طلبة العلم إلى ثلاثة أقسام في هذا الموضوع:

- ١- عموم طلبة العلم الشرعي.
- ٢- المتخصصين في أبواب معينة من العلوم الشرعية تتحتم مزيد عناية فكرية.
- ٣- والمتخصصين في بعض الواجبات الشرعية.

١- أمّا عموم طلبة العلم الشرعي:

فهناك أولاً: ما يتعلق بالأدوات، وهذه يجب أن يهتم بها جميع طلبة العلم الشرعي، ويجب ألا تكون محل جدال أو نقاش، الموضوعات التي أتحدث عنها في جانب الأدوات فيما يتعلق بالمهارات والكتابة والبحث والاستدلال، هذه مهارة يجب أن تكون عند عموم طلبة العلم الشرعي، وهذا جانب مهم من القضايا الفكرية.

أيضاً ما يتعلق بالملكة والبنية، أيضاً هذه يجب أن يعتني بها طالب العلم. ما يتعلق بالمعارف -وهي محل الإشكال- فهناك حد أيضاً يجب ألا يغفل عنه أي طالب علم، وهو ما يتعلق بجانبين:

الجانب الأول: القضايا الشرعية، فهناك قضايا فكرية هي في الحقيقة علوم شرعية، وهي تصنف أو تحسب عند الناس قضايا فكرية، لما يتحدث شخص عن العقل والنقل، هذا المبحث مبحث فكري معروف، لكنه في حقيقته مبحث شرعي، لما يتحدث شخص عن الاجتهاد والتقليد مثلاً في الأصول، هذا مبحث أيضاً شرعي، وهو في الحقيقة قضية لها احتكاك فكري كبير، إذًا هذا المستوى يجب ألا يغفل عنه طالب العلم الشرعي، وهي في الحقيقة ليست قضايا فكرية محضة، إنما هي قضايا شرعية، وهذا يؤكد الكلام الذي تكلمنا عنه سابقاً، ما يتعلق بجعل الفكر في مقابل الشرع.

هذه القضايا الفكرية هي في الحقيقة قضايا شرعية أساساً، هي من صميم البحث الفقهي والبحث العقدي والبحث الأصولي، فهذه يجب أن يُعنى بها جميع طلبة العلم.

الجانب الآخر: ما يتعلق بالدراسات الشرعية المعاصرة التي تعالج قضايا شرعية، وهذه تشكل مساحة واسعة من الكتابات الفكرية، يعني لما يؤلف شخص في حقوق المرأة السياسية مثلاً، أو في مثلاً المواطنة، أو مثلاً في تحكيم الشريعة وعوائق تطبيقها، هذه موضوعات تعتبر من جانب الفكر السياسي، لكنها في الحقيقة هي مباحث شرعية، فالمباحث الفكرية التي تعالج واقعاً معيناً، يجب ألا يغفل عنه طالب العلم الشرعي، يجب أن يكون مطلعاً عليها؛ لأنها في الحقيقة من المباحث الشرعية.

إذاً هذان الجانبان من المعارف الذي يجب ألا يغفل عنها أي طالب شرعي، ما يتعلق بالمباحث الشرعي التي تصنف، أو قد تعتبر فكرية، وما يتعلق بالدراسات الشرعية المحتكة بالواقع وتحدياته وحاجاته؛ لأنها من جنس البحث الشرعي.

٢- ننتقل إلى مستوى ثاني، وهم: المتخصصون في أبواب معينة من العلوم

الشرعية، فعندنا متخصصون في باب العقيدة، أو متخصص في باب يعني الأصول، فهؤلاء يجب عليهم أن يعتنوا في القضايا الفكرية بما يتصل بتخصصهم أكثر من الصنف الأول، فالشخص المتخصص في العقيدة، مثل الباحثين أو المؤلفين أو أساتذة الجامعات، أو أوقف نفسه على الاهتمام بباب العقيدة، لا يقبل منه أن يكون مفرطاً ومقصراً في فهم المذاهب الفكرية المعاصرة؛ لأنها مرتبطة بتخصصه، فليس مقبولاً أن يكون اهتمامه ومعرفته واطلاعه على المدارس التراثية القديمة قوياً وواسعاً ومحكمًا، وعنده قدرة على فهم تفاصيل مذهب المعتزلة، والرد عليهم، والإلزام على حججهم بطريقة قوية ومقنعة ومبرهنة، لكنه عندما يتحول خطوة إلى الدراسات المعاصرة يكون ضعيفاً أو سطحيًا، هذا لا يقبل منه؛ بل يجب أن يعتني بهذه المباحث كما اعتنى بالمباحث السابقة.

يعني ما الذي أدخل حجج المعتزلة والأشاعرة في البحث العقدي، وأخرج المذاهب الفكرية المعاصرة؟ لماذا تلك تعتبر من صميم العلم الشرعي، وهذه خارجة بعيدة عنه؟ هل

هناك فرق موضوعي صحيح؟ طبعًا لا، فجميعها تتضمن موضوعات مرتبطة بالإيمان والاعتقاد، وفيها إشكال على أصول شرعية، وتفرض ضرورة الإجابة عنها، والدفاع عن الأحكام.

نعم، أنا أتفهم أن يأتي شخص أو عدد معين، فيقول: أنا مثلاً لا أحب هذه المباحث وسأبقى متخصصاً في جانب معين، لا إشكال، يعني ممكن أن يتخصص في أي جانب ولا يطلع على أي شيء آخر، لكن ليس مقبولاً أن يكون هذا هو الأمر الشائع والمنتشر عند طلبة العلم الشرعي، بل أن يجب أن يكون ثمة موازنة بين الاطلاع على المدارس القديمة، والاطلاع على المدارس المعاصرة.

وقل مثل ذلك فيمن يتخصص في جانب شرعي آخر، إذًا المستوى هنا سيطلب منهم في الاطلاع الفكري ما لا يُطلب من المستوى الأول؛ فالمستوى الأول لن يُطلب منه، أن يقرأ مثلاً في موضوع الليبرالية، أو يعرف تاريخها ورموزها.

المستوى الثالث: المتخصصين في بعض الواجبات الشرعية:

وهم فئة أخرى من طلبة العلم تخصصوا في القيام بواجب شرعي، مثلاً بعضهم يتخصص في مواجهة الإلحاد، فأوقف نفسه، وبذل جهده في علاج إشكالات الإلحاد وشبهاتهم، والجلوس مع الشباب وإقناعهم، وإلقاء محاضرات ودروس ودورات في هذا الأمر، فحدود اطلاع هذا الشاب، أو طالب العلم الذي تولى هذا الواجب، لن يكون مثل المستوى الأول، ولا حتى المستوى الثاني، سيتابع الحوارات، ويقرأ تفاصيل شبهات الملاحدة، ويجالسهم ويناقشهم، فحدود اطلاعه أوسع وأبعد وأعمق من الصنف الأول والصنف الثاني؛ نظرًا لأنه يقوم بواجب شرعي، لا يمكن أن يقوم بهذا الواجب الشرعي حق قيام؛ إلا بقراءة أوسع وأعمق من القراءة التي يقرأها المستوى الأول والمستوى الثاني.

المستوى الأول والثاني ليسوا بحاجة أن يقرؤوا بمثل قراءة المستوى الثالث؛ لأن ليس من مهمتهم مناقشة الملاحدة، يعني مهمتهم تحقيق المستوى الذي يريدوا الوصول إليه من

بيان الحكم الشرعي، وهذا يحصل بقراءة أقل من القراءة الموسعة، التي طبعًا تأخذ من وقت الإنسان وجهده وعمره، وهو أساسًا لم يفرغ نفسه لهذا الواجب.

إذًا نجد هناك درجات في العناية الفكرية:

المستوى الأول: درجة عموم طلبة العلم: يجب العناية بالأدوات وبالمكنة الفكرية، مع عناية بالدراسات الفكرية المعاصرة التي تتحدث عن القرائن الشرعية، وعناية بالمباحث الشرعية المرتبطة بالقضايا الفكرية.

المستوى الثاني: أعلى منهم وهم المتخصصون في الأبواب الشرعية: يكون لهم عناية بما تخصصوا فيه.

المستوى الثالث: المتخصصون في الواجبات الشرعية: فيكون لهم عناية واهتمام أكبر من المستوى الأول والثاني.

درء التعارض بين التخصص الشرعي والعناية الفكرية:

من هنا نصل إلى النقطة التي تليه، وهي ما يمكن أن نسميه: درء التعارض بين التخصص الشرعي والعناية الفكرية، يعني في الحقيقة ليس عندنا تعارض بين التخصص الشرعي والعناية والاهتمام الفكري، فليس ثمة تعارض في المستوى الذي نريده هنا؛ فالاهتمام الفكري ليس قسيمًا للعلم الشرعي، بل بعض القضايا الفكرية هي علوم شرعية، أو أدوات فهم وتفعيل للعلوم الشرعية.

ويجب أن يكون عندنا تمييز بين درجات الاهتمام الفكري، فلما أقول للشباب أو طالب العلم: اهتم بالقضايا الفكرية لا أعني أن يكون عنده إغراق في هذا الجانب، أو أن يعيش حالة المزاج والشعارات التي تكلمنا عنها سابقًا، فيغرق فيها وينسى أنه طالب علم، يبدأ الشاب يقرأ في الكتب التي هي بعيد عن تخصصه؛ فهو لأجل أن يؤسس نفسه فكريًا، فيكون طالب علم مؤسس فكريًا، يترك طلبه للعلم، فلا يكون أساسًا طالب علم شرعي.

فالمقصود هنا أن يكون اهتماماً معتدلاً، فانتقاء واعتدال في القراءة الفكرية لا تؤدي إلى أن ينسى الشاب وطالب العلم أنه طالب علم، وخاصة أيها الإخوة، وأنا أوجه حديثي إلى طلبة العلم الشرعي، خاصة أن الشخص في بداية طلبه للعلم الشرعي، إذا وُفق وبدأ في برنامج حفظ وقراءة واطلاع، من الحرمان أن يوقف هذه البرامج أو يؤجلها أو يضعفها، في سبيل أن يبحث عن قراءة كتب معينة، يشعر أن المزاج العام يبحث عنها. أنا أعتقد أن هذا تقصير كبير، خاصة إننا لا نتحدث عن شخص متخصص سيؤلف رسالة ماجستير أو دكتوراه، نتحدث عن طالب علم يقول: أنا سأؤسس نفسي، فمن المهم أن يكون الأصل والغالب والعموم هو بحثه الشرعي، وتكون القضايا الفكرية التي يعتني بها متعلقة بالأدوات ومتعلقة بمستوى القراءة الذي تحدثنا عنه.

يأتيني أحياناً بعض الشباب في المستوى الرابع أو السادس من كلية الشريعة، ويحدثني عن برنامجه العلمي، وأنه يحفظ مجموعة منظومات، وبدأ في حفظ يعني كذا موسوعة، ويطلع ويجرد كتباً شرعية، حقيقةً تغبط الشاب الذي في هذا العمر أن يُوفق إلى هذا البرنامج العميق والمكثف في الدراسة الشرعية، وترجو لمثل هذا الشاب لو استمر في هذا البرنامج عدة سنوات أن يخرج طالب علم نوعي لو استمر في مثل هذا البرنامج، فيؤمك لما يسأل بطريقة من يريد العزوف وترك هذا المجال، بحثاً عن مجالٍ آخر، أنا أعتقد أن هذا من الحرمان والخذلان بأن يترك ما فتح الله عليه في العلم الشرعي، ويبدأ يغرق في ماعده، القضية قضية موازنة ومراعاة المستويات التي تحدثنا عنها.

بقي معنا في هذه المحاضرة هذا المحور، وهو محور طويل نوعًا ما: **كيف يبني طالب العلم نفسه فكريًا، ومحور مزالقي فكرية.**

كيف يبني طالب العلم نفسه فكريًا؟

بعد الحديث عن أركان البناء الفكري وأهميته، نبدأ في بعض الإشارات والآليات المهمة في قضية البناء الفكري:

أولاً: تنوع القراءة: أن ينوع قراءته لتشمل القراءة في الدراسات المعاصرة الجيدة، يعني يكون عنده اطلاع على الأبحاث، الرسائل المتعلقة بالقضايا الشرعية المعاصرة التي لها احتكاك بواقع الناس الاقتصادي والسياسي والاجتماعي، فيتدرب الذهن ويستفيد من هذه الدراسات.

من ذلك القراءة في الموضوعات الشرعية المرتبطة بالإشكالات المعاصرة، فإذا أثرت قضايا معاصرة، من المهم أن يعود الإنسان نفسه أن يرجع فيؤولها شرعيًا، فإذا أثرت قضية، يبدأ يرجع إلى هذه القضية فيقرأها قراءة شرعية مؤصلة، ولا يقرأها قراءة الشائع إعلاميًا، يعني دومًا ما تشيع في المشهد الإعلامي قضايا كثيرة متعلقة بالأحكام السياسية، أو الاقتصادية أو الاجتماعية، لكن أكثر الناس يعرف عنها ما قيل في الإعلام، وما قيل في الكتابات العامة، لا ألوم الناس إذا فهموا هذا، أو اطلعوا بهذا المستوى، لكن يُعاب على طالب العلم أن يكون حده من الاطلاع على هذه القضايا ما سمعه في برنامج فضائي، أو اطلع عليها في التغريدات في تويتر، أو شاهدتها في اليوتيوب.

المفترض إذا كانت هذه المسألة جديدة عليه، أن يكون ما شاهده محفّرًا له أن يقرأ ويرجع للمسألة فيبحثها بحثًا مستقلًا، حتى يكون مطلعًا على المسألة اطلاعًا صحيحًا، وليس أن يأخذها من فضاء إعلامي.

أيضًا القراءة في تاريخ الأفكار والاتجاهات وأصولها، يعني مثلًا القراءة في العلمانية، الليبرالية، الحداثة، العقلانية.. ونحو هذه الاتجاهات، وكذا القراءة في العلوم الإنسانية بالصورة التي تكلمنا عنها فيما يتعلق بالمستويات الثلاث.

الأمر الثاني: التأني والتريث: يعني من الضروري لطالب العلم أن يربي نفسه، وأن يكون رجلاً ذا أناة، رجلاً ذو أناة يعني لا يصدر الأحكام إلا بعد تريث وتأني وتبصر، التأني ليس بمعنى اللامبالاة، وإنما بمعنى أن يؤخر الأحكام ويجعلها تطبخ في ذهنه فترة من الزمن، لا يكون الشخص عاجلاً وسريع الأحكام؛ بحيث أنه تأتيه بعض المسائل يسمعها لأول مرة، فيبدأ يحكم ويفصل ويقسم بناءً على معلومات سمعها للمرة الأولى، يجب أن يكون طالب علم رجلاً مكثماً متأنياً لا يتعجل في الأحكام حتى ولو جزم بها، يعني حتى ولو كان جازماً بها ينتظر فترة من الزمن حتى يعمق الاستفادة من هذه الأحكام وتكون أحكامه فعلاً أحكام مبنية على بصيرة.

النبي -عليه الصلاة والسلام- لما أثنى على أشج عبد القيس، قال: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة» فالأناة صفة شخصية في الإنسان، ضرورية في بنائه الفكري والعلمي.

لماذا يتأني؟ لعدة أمور:

١- لأجل مزيد اطلاع: قد يكون اطلع على المسألة، لكن يحتاج إلى مزيد، مزيد استعراض وفحص للحجج، يعني قد يكون سمع الحجة للمرة الأولى، فيحاول أن يفحصها مرة أخرى وثانية، ويحاول يورد إشكالات حتى يصل إلى المستوى الذي يشعر أنه فعلاً فحص الأدلة فحصاً كافياً.

٢- أيضاً ليعرف آراء المتخصصين في هذه الجزئية: فيسأل متخصصين في هذه القضية، ويستفيد من آرائهم.

٣- وكذلك لأجل فحص فرضيات جديدة، يحاول يطرح المسألة بأوضاع مختلفة، فيطرح لو كانت المسألة بهذا الشكل، لو غاب هذا الشيء، لو دخل هذا الأمر، يحاول يعرض فرضيات على المسألة ثم يبحث كل فرضية حتى يصل للحكم النهائي الصحيح.

٤- وليكون لديه قدرة على تفكيك الموضوعات: لأن من طبيعة الموضوعات الفكرية أن تكون مشتبكة، فيحاول يفككها ويقسمها إلى عدة أقسام، وكل قسم تحته

ثلاث حالات، هذه الطريقة من التقسيم تفك الاشتباه الذي يدخل فيه الحق مع الباطل، والصواب مع الخطأ، والاجتهاد مع القطع.. ونحو ذلك.

٥- لأهمية الوقت في التفكير: وهذه قضية جداً مهمة، يعني من الضروري لأي إنسان أن يعرف أهمية الوقت في تفكير الإنسان، بمعنى أن بعض الحق، وبعض الوضوح وبعض المسائل تحتاج حتى تصل فيها إلى رؤية واضحة فيها إلى وقت، ما يكفي أن تقرأ لتحكم الآن، لا؛ اقرأ الآن وضعها في ذهنك، يعني في النهاية أنت لست مفتياً للأمة، تنتظر الأمة آراءك فيجب أن تحسمها اليوم، يعني ما في شيء يحتم الاستعجال، فلن تموت الأمة إذا هذا الإنسان ما أظهر آراءه، فيجب أن يكون الإنسان مقتنعاً أنه يحتاج إلى وقت حتى تتخمر لديه الأفكار، وتنضج وتوضح الرؤية.

وخاصة مع السن، يعني الشاب في مقتبل عمره يحتاج إلى سن أكبر حتى يعني تنضج معه هذه الأفكار، تجد أحياناً بعض القضايا فيها مدارس واتجاهات ونقاشات وانشاقات، فيأتي الشاب يقرأ عنها في أسبوع أو أسبوعين، ثم ما شاء الله يحسم حكمه في هذه القضايا في ورقات، وهذا حقيقة من قصور العقل والإدراك عند الإنسان أن يصل لهذا الأمر.

القضايا الكبيرة، والمعقدة، والتي فيها إشكالات كثيرة تحتاج إلى وقت حتى الإنسان يبدأ في أن يصل إلى رؤية ناضجة، وهذه مهمة أيها الإخوة حتى عند الشباب الذين يطرحون إشكالات معينة، ويثيرون شبهات، مهم أن يقنعون بشكل أو بآخر، أن المطلوب منك إذا لم تقتنع بالجواب عن الشبهة أن تحتفظ بها فترة من الوقت، فأنت الآن عندك شبهات، الشبهات هذه بدأت معك حديثاً، أنت سافرت، قبل أن تسافر لم في قلبك ولا عقلك أي إشكال، جلست هنا شهراً أو شهرين، بدأت معك هذه الإشكالات، فليس منطقياً أن أسئلة حديثة العهد والورود في ذهنك، أن تبدأ بسببها فتفصل وتبني أموراً كبيرة، إذا لم تقتنع بالإجابات، فعلى أقل شيء دعها في ذهنك

كأسئلة كإشكالات كفرضيات بحث، ولست مضطراً لإظهار القناعات وإشاعتها والمنافحة عنها.

لو تركها في ذهنه، ستجده يميل لاحقاً للاعتدال والاتزان، ويصحح وضعه بشكل جيد، لكن الإشكالية أنه يظهر هذه الحجج ثم ينافح عنها، ثم يصعب عليه بعد ذلك أن يتراجع عنها؛ لأنها أصبحت جزءاً من شخصيته وفكرته وتكوينه، فيصعب عليه أن يتخلى عنها.

ثالثاً: العناية بالفروق

يعني يحرص طالب العلم أن يعتني بالفروق بين المسائل، الفروق بين الأدلة، الفروق بين الأفكار، ليس التشابه بينها، المميز للفهم هو الفرق وليس الجمع، فكل الأفكار والمذاهب فيها تشابه، لكن الدقة تبرز وتظهر وتتجلى لما تظهر لي الفروق بينها، فيحرص طالب العلم على اقتناص الفروق، وإظهارها وإبرازها، الفرق بين الدليل هذا والدليل هذا، والفرق بين القول هذا والقول هذا، الفرق بين أصحاب الاتجاه الواحد.. وهكذا، يعني حتى تكون نظرتة أعمق وأدق.

رابعاً: مما يساعد على تربية طالب علم نفسه فكرياً التدريب والتطبيق:

فمن المهم أن يدرب نفسه ويختبر قدراته ويمتحن أدواته ويطورها بالكتابة والبحث والمشاركة العلمية، والمدارسة مع الأقران، هذه الأدوات لا يصلح أن تكون حبيسة النفس، بل تظهر وتبرز مع التدريب، فالتدريب يظهر مستواها، ثم تتطور مع الأيام، قد يقع في خطأ ويصححها ثم يكتسب معلومة.. وهكذا، فلا بد من تدريب حتى تظهر هذه المهارات وتقوى.

خامساً: فحص الاستدلال ومصادره.

وقد سبق الحديث عن شيء منه، بأهمية:

أ- التمييز بين الدليل والاستدلال.

ب- وفحص صحة الاستدلال ودلالته على محل النزاع وتكلمنا عنه.

ج- تجاوز العموميات في المصادر المعتمدة، يعني الحديث العام في المصادر هو دليل على ضعف في البناء الفكري، لما يقول شخص: أثبتت مراكز الأبحاث، ولا تدري أي مركز، وفي أي مكان، وأثبتت ماذا، وقال ماذا؟ وهكذا تأتي هذه المصادر في سياقات يتناقضها طلبة العلم، وهذا حقيقةً قصور ظاهر.

ومثله الحديث عن في الغرب أنهم يفعلون هكذا، فالغرب يعني وكأننا نتحدث عن مجموعة، أنت تتحدث عن مجتمعات مختلفة، وفيها مئات الملايين، وبكلمات عامة.. وهكذا يجب أن يتجاوز طالب العلم الحديث عن المصادر العامة السائبة السائلة هذه، وأن يكون هناك تدقيق وتركيز في المصادر المعتمدة.

سادساً: الفهم الجيد للواقع وتوظيفه في تعميق الأثر الشرعي:

فيطلع طالب العلم على حاجات الناس، ويتابع حواراتهم، ويلم بخرائط اتجاهاتهم، يعني ليس بالضرورة أن يعرف كل شخص وماذا يقول، إنما من المهم أن يعرف الاتجاهات الرئيسية في كل فكرة، فمثلاً ما الاتجاهات الرئيسية في تحكيم الشريعة؟ فيبدأ يقسم الناس إلى خرائط، الخرائط ليس مقصود بها أن أحكم على آحاد الناس، إنما الهدف أن أفهم الاتجاهات والأفكار، فإذا جاءت هذه القضية: كيف نحكم بالشريعة؟ .. فيقول لك: قبل أن تتكلم استحضر ما اتجاهات الناس في هذه القضية؛ يعني قسم لي مواقف الناس إلى خمس أقسام، هذا سيساعد الإنسان مساعدة كبيرة في كيفية فهم القضية، وكيف يبرهن عليها، وكيف يجمعها؟

أما الشخص الذي يدخل مباشرة ولا يعرف الخرائط والاتجاهات يكون عنده قصور في فهم القضية والحكم عليها، ونعني هنا الاستفادة المعتدلة، يعني من المهم أن الشخص يطلع على الواقع، ومن المهم أيضاً أن يكون اطلاعه على الواقع اطلاعاً معتدلاً.

يعني لا يكون الشخص مغرقاً في ملاحقة جدليات وحوارات إلى ما لا نهاية، إنما يكون الشخص عنده اطلاع معتدل لا يخفى عليه مثلاً الأفكار الرئيسية، الأحداث

المركزية، لكن بدون زيادة تؤدي إلى إشغال ذهنه، وإشغال وقته، وإشغال تفكيره عن تأسيسه الفكري وتأسيسه الشرعي المبني على القراءة والبحث والنظر الصحيح.

سابعاً: العناية بمهارات التفكير وتطبيقها في التعلم الشرعي ذاته:

مهم لطالب العلم وهو يتعلم، أن يتعلم بمهارات، فلما يقرأ يقرأ بتركيز وتدقيق ومقارنة وتحليل وتصنيف، حتى يستفيد استفادة مثلى من العلم الشرعي الذي يتخصص فيه.

ثامناً: أيضاً العناية بالدراسات المركزية في الكتابة الشرعية:

هناك كتابات شرعية تعتبر دراسات مركزية إن صحت التسمية، تسيطر على عقل أو عقول طلبة العلم، من المهم أن الإنسان يعتني بهذه الدراسات، فمثلاً كتابات شيخ الإسلام ابن تيمية، تعتبر كتابات مركزية توجه كثيراً من اجتهادات طلبة العلم، واختياراتهم ومواقفهم، فمن المهم جداً لطالب العلم أن يطلع على هذه الكتابات.

ونقول: العناية بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، لماذا؟ ليس لمعرفة العلم الذي يبثه شيخ الإسلام فقط؛ وإنما الاستفادة من العبقرية التي يمتلكها هذا الإمام، وكيفية توريد الحجج، وكيفية البرهنة؛ يعني العقل الكبير الذي يعني كتب به مؤلفاته رحمه الله، فلما طالب العلم يطلع عليها، ويدم النظر فيها، تلقائياً سيتأثر بهذه الأدوات ويوظفها في كتاباته ويزيد عليها.

أيضاً كتابات مثلاً الغزالي رحمه الله، والشاطبي، وغيرهم من الأئمة، الذين تعتبر كتاباتهم كتابات مركزية وفيها مستوى من الإتقان والذكاء والفهم لا يخفى.

تاسعاً: أيضاً العناية بالدراسات المركزية في الفكر الإسلامي المعاصر:

هناك أيضاً طبقة من الكتاب والدعاة والمفكرين أجابوا عن أسئلة تحديات الثقافة الغربية، وإشكالاتها على الإسلام، وقدموا الإسلام بصورة تدفع الشبهات، وتعزز القيم، من المهم أيضاً الاطلاع على هذه الكتابات، وهذا لا يعني تصحيح كل ما فيها، وإنما الاستفادة من الأدوات والمهارات والطرائق التي كتبت بها هذه الدراسات.

أيضاً الانفتاح على الآراء الأخرى، في المذاهب الفقهية، والأقوال الأصولية، والاستفادة منها.

إشكالية الاستفادة والانحراف:

وهنا يطرح موضوع الانفتاح سؤالاً مركزياً ومهماً، وهو ما يصح أن نسميه إشكالية الفائدة والانحراف، وهو أن بعض الشباب لما يقرأ بعض الكتب، أو يطلع على بعض المذاهب، أنها قد تكون سبباً لانحرافه وإضلاله، وفي نفس الوقت هي فيها فائدة سيستفيد منها في جانب أو بآخر، فنحن بين إشكاليتين: إشكالية الفائدة التي قد يستفيد منها طلبة العلم من هذه الكتب، وفي نفس الوقت إشكالية أنها قد تؤدي إلى انحراف.

فكيف ندفع هذه الإشكالية، وكيف نخفف من إشكالياتها؟

في الحقيقة ثمة عدة عناصر تساهم في توضيح الإجابة عن هذا الإشكال:

أولاً: يجب الحفاظ على الحذر الشرعي، وأن لا يُلغى، حتى لو اقتنع طالب العلم الشرعي بالقراءة في الكتب الفكرية لتخصصه أو لأي هدف، يجب أن يبقى الحذر الشرعي من الانحراف وزيف القلب، والابتعاد عن الهدى يجب أن يبقى حاضراً وعميقاً ومؤثراً في تفكير جميع طلبة العلم، لماذا؟ لأن الإنسان معرض لها، فحتى لو ساغ له أن يطلع، يجب أن يستحضر أن قلبه قد ينحرف في أي لحظة، وهذا يحتم على طالب العلم مزيد ارتباط بالله، وتجرد عن النفس، وإلحاح ودعاء، ومثل هذه المعاني الإيمانية، التي بإذن الله ستكون سبباً لتثبيت قلبه.

أمّا الذي يقرأ وقد غابت عنه هذه المعاني، ويشعر أن لديه من العقل والقدرة والفهم ما يغنيه عن الانحراف، فهو أهلٌ لأن ينحرف، ولو كان طالب علم شرعي؛ لأنه اعتمد على نفسه وتجرد عن اتصال قلبه بالله سبحانه وتعالى؛ فمثل هذا حريٌّ بأن يُخذل، فالحفاظ على هذا الحذر الشرعي ضروري، وتعميقه ضروري، الاستماع له ضروري، حتى يبقى كضمان شرعي لأي طالب علم مثل هذه الشبهات، لأن إشكالية الشبهات ليست مسائل رياضيات، إذا لم يفهما الشخص انحراف، وإذا فهما لم ينحرف، لا؛ إنما قد

تأتيك الشبهة اليسيرة فتظلم قلبك، وتأتي الشبهات الضخمة على عامي فلا تؤثر فيه شيئاً، فهي انقياد وتسليم واطمئنان قلبي، وهذا ليس متعلقاً فقط بالفهم أو عدم الفهم.

الأمر الثاني: أنه يجب ألا يكون هذا خطاباً للجميع، يعني لا يصح أن نحث عامة الناس أو عموم طلبة العلم على القراءة في الكتب المنحرفة، فرق بين أن تحرض عليه، وأن تستفيد منه في قيود، لما يأتي بعض الناس فيحدث الشباب ويقول: ثقوا بعقولكم، لا ترهنوا عقولكم لأحد، ولى زمن الوصاية، ولا تضعوا على عقولكم أقفال بيد أناس، وقرأوا ما شئتم، وأعطاكم الله عقولاً تميزون، وليس على عقولكم خوف،.. إلى آخر هذا الكلام الخطابي المعروف، هذا الكلام يتمسح بالعقلانية؛ لكنه خطاب غير عقلاني، خطاب شعاراتي يستغل العقلانية، ومزاج يدغدغ عواطف الشباب لكنه ليس عقلانياً ولا شرعياً ولا مصلحياً، ومن الغش للشباب أن يقول لهم الشخص هذا الكلام.

نعم؛ إذا جاء الشاب فقال: أنا سأقرأ ولا أبالي، يعني هو يقول: أنا لن أسمع لنصيحتك، وأنا سأقرأ ما أشاء، في النهاية إذا هو سلك هذا الأمر، فرق بين أن يسلكه باختياره، وبين أن تحرضه وتحسنه له، إذا هو قرأ على كل حال، سننتقل معه للنقطة الثانية، وهي دعوته إلى أهمية التثبيت على الأصول الشرعية، ومراجعة القلب، ونحو هذه المعاني، ونصيحته أيضاً، بانتبه لقلبك، انتبه لدينك، انتبه.. لا تفسدها بهذه القراءات، القضية ليست مسائل رياضيات إذا فهمت أمنت، وإذا لم تفهم ضللت، لا؛ يعني القضايا الشرعية ليست قضايا أذكاء وأغبياء يا جماعة، يعني الذكي مؤمن والغبي يصير كافر، ليست هكذا، قد يكون الشخص من أذكى الناس وهو زنديق، فالقضية ليست مرتبطة بفهم أو ليس عليك خوف بسبب فهمي.

الملاحظة الذين ارتدوا، الذين عاندوا الشرع، ليسوا كلهم أغبياء، وليس بالضرورة يكونوا أغبياء، بل ليس ثمة علاقة بين الغباء والكفر، ليس له علاقة، فكثير منهم أذكاء ولديهم عقول وأفهام، لكن لم يلتزموا بالشرعية.

الأمر الثالث: أيضًا هي مرحلة يجب تأخيرها لطلبة العلم، فهو أحوج للعلوم الشرعية منها، يعني الاطلاع على هذه الكتب يجب أن تكون في مرحلة متأخرة مسبقة بتأسيس شرعي وقراءة مسبقة قبل أن ينتقل إليها.

الأمر الرابع: أيضًا يجب أن تسبقها قراءة في الكتب الوسيطة إن صحت التسمية، وهي الكتب الشرعية التي تناولت قضايا فكرية في مجالات مختلفة، قبل الدخول في الكتب الفكرية التي تتبنى رؤية غير شرعية، لماذا؟

لأن الكتابة الفكرية لها طريقة تفكير، ولغة، ومزاج مختلف، لما ينتقل لها طالب العلم مباشرة، قد تؤثر فيه بسبب خضوعه للصياغات والشعارات، بينما لو قرأ الكتب الوسيطة كسرت حدة هذه الإشكالات، وأعطته مفاتيح، ووضحت بعض الإشكالات، وقدمت له أدوات، بحيث أنه إذا انتقل للكتب هذه في مرحلة لاحقة، يكون لديه تأسيس ومنعة وأدوات ومكانة، يستطيع أن يوظف ويناقش ويجادل.

يعني ميزة الردود الشرعية التي تعالج الشبهات أنها تكسر حدة هذه الشبهة، فما يكون لها ذاك التأثير، انظروا مثلاً شبهات المستشرقين في قضايا كثيرة، لا تجد لكثير منها رواج، بسبب أن الكتابات الشرعية أحرقتها بالرد والتوضيح والشرح والتفصيل؛ حتى أصبحت الفكرة نفسها مملّة، ويعني سمجة ومزعجة من كثرة الرد عليها، فأصبحت تعاد بصياغات أجمل وألطف وأكثر جاذبية، هنا فائدة القراءة في الكتب الشرعية قبل الانتقال إلى الكتب التي لا تلتزم بالأحكام الشرعية أو بالرؤية الشرعية.

الأمر الخامس: أيضًا انتقاء ما يفيد منها وترك الاغراق لقلة متخصصين، يعني فرق بين القراءة في كتب تتكلم عن تاريخ الأفكار، وبين القراءة لكتب جزئية، يعني واحد يقرأ عن تاريخ الإلحاد مثلاً، وأبرز شبهات الإلحاد وأبرز أفكاره، فرق بين هذه الكتب والكتب التي تقوم على الإلحاد وتبرهن عليه، هذه الكتب لا يحتاجها إلا المتخصص، في أي حالة تكلمنا عنها؟ المستوى الثالث، نعم، المتخصص بالواجب الشرعي، هو الذي قد

يحتاجها، أما بقية طلاب العلم، فلن يتأثر تأسيسهم الفكري أبدًا بالابتعاد عن هذه الكتب أو عدم الاستفادة منها.

عاشراً مما يبني طالب العلم فكرياً: العناية بالخلاف الفقهي العالي والتأمل في منهجيات الاستدلال والنقد، ففي كتب الفقهاء خلاف فقهي، وأدلة وحجج، واستدلالات، من الضروري أن يعتني بها، هي في الحقيقة تقوم على بنى استدلالية عميقة، فالفقهاء يختلفون، ويرد بعضهم على بعض، مهم أن الشخص يتأمل في هذه الطرائق، يعني بعض طلبة العلم أحياناً يقول: هذا دليل وأجابوا عنه، لا يكفي هذا، أجابوا عنه بماذا؟ ولماذا؟ وما علاقة هذا بالموضوع؟ هذه الطريقة التحليلية في الأدلة ستورث قوة في الاستدلال لدى طالب العلم.

الحادي عشر: الاستفادة من علم المنطق والجدل، مع عدم الارتكان إليه، أيضاً علم الجدل وعلم المنطق فيها أدوات في الفهم والجدل قد يستفاد منها، مع ملاحظة عدم الارتكان إليها، يعني لا يتعامل معها الشخص بطريقة: قاعدة وأطبقتها، فلما يتكلم يقول: المقدمة الأولى، المقدمة الصغرى، المقدمة الكبرى، والنتيجة.. هذه طريقة ضعيفة وفي الحقيقة لا تعبر عن مهارة، إنما يستفيد منها ويدخلها في بنيته الفكرية، وينضجها بأدوات مختلفة بحيث تظهر بشكل أقوى وأكثر تأثيراً.

الثاني عشر: المصاحبة للكفاءات العلمية، قراءة، ومجالسة، واستماعاً، ومتابعة حوارات، واستلهام طرائق، هذا أيضاً مهم جداً في البناء الفكري.

الثالث عشر: العناية بالسؤال: وقصدي بالسؤال ليس بمعنى توضيح المشكلات، ما معنى هذا الكلام؟ أعد لو سمحت ما قلت؟ اشرح لي هذه الجملة.. لا أعني هذا السؤال، وإن كان هذا مهماً، إنما أعني بالسؤال الذي ليس مجرد طلب التوضيح، وإنما السؤال الكاشف الذي يعبر عن عمق استدلال، وفهم لدى طالب العلم، فعادة الأسيخ في الدروس أنه لا ينكشف لهم قوة طالب العلم إلا عن طريق السؤال، الجواب ليس بالضرورة كاشف، قد يكون قد حضرّ الجواب، الحفظ أيضاً ليس كاشفاً، يكون قد حفظه

من قبل، لكن السؤال كاشف، السؤال يعبر عن فهم، يعبر عن زوايا نظر كانت غائبة عن الشيخ الملقى، فالسؤال حقيقةً يجب أن يعتني به طالب العلم، ويتعامل معه باهتمام وعناية.

دور الأسئلة في استثمار القراءة:

يعني لما تقرأ كتباً كثيرة، الشخص الذي عنده أسئلة سابقة، يستفيد من قراءته أكثر من الشخص الذي ليس عنده أسئلة، كيف؟ لما أقرأ مثلاً كتاب منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية، قد أقرأ أربع صفحات وأقول: كلام جميل ورائع وممتع فقط، بينما يقرأها شخص آخر ويقول: يا سلام، السطر هذا رد على من يقول كذا، من هم الذين يقولون؟ ماذا يقولون؟ فيبدأ يشرح لك ماذا قالوا؛ فلاحظ إنه استفاد من النص شيئاً ما استفدته منه أنت، لماذا؟ لديه أسئلة سابقة، لديه إشكالات سابقة، فرضيات سابقة يبحث عنها، فالقراءة من خلال اثاره الأسئلة يساعده على استثمار هذه القراءة.

الإجابات أحياناً تكون سهلة، لكن الصعوبة في السؤال المبتكر، فالذي سيخرج هذا السؤال يستطيع يؤلف بحثاً معه؛ لأنك إذا استخرجت السؤال، فالجواب متيسر، لكن التحدي في استخراج السؤال، وهذا قيمة الرسائل العلمية، ما الميزة في رسائل دون رسائل؟ هل معنى هذا أن الباحث قوي وهذا الباحث ضعيف؟ لا يلزم؛ إنما بعض الباحثين يوفقه الله إلى طرح سؤال، السؤال هذا ممتاز، البحث بعد ذلك سيكون رائعاً، لماذا؟ لأن السؤال ممتاز، فأني إجابة ولو كانت ضعيفة ستكون فيها فائدة، وإثراء؛ لأن المدخل كان مدخلاً صحيحاً، بينما بعض الفرضيات مهما اجتهد الباحث فلن يقدم تلك الفائدة؛ لأن السؤال لم يكن بذلك، والفرضية ليست فرضية مبتكرة، ومميزة، هذا ما يتعلق بموضوع العناية بالسؤال.

الرابع عشر: العناية بالمباحث الشرعية ذات الصلة الوثيقة بالفكر:

وسبق الحديث عنها، يعني الاجتهاد والتقليد، العقل والنقل، المصالح، المقاصد، هذه كلها مباحث شرعية، المصلحة، تقديم المصلحة على النص.. هذه كلها مباحث شرعية،

العناية بها والبحث الشرعي فيها مهم، ومثل: الضرورات، المصالح، تغيير الزمان والمكان، المقاصد.. التأويل وغيرها.

المحور الأخير: المزالق الفكرية

هناك مزالق فكرية يقع فيها طالب العلم بناء على ضعف البنية الفكرية:

المزلق الأول: الكتابة والحديث عن شيء لم يقرأ فيه قراءة كافية؛ وإنما غاية ما يعرف

فيه هو مجرد كلام عام.

فبعض طلبة العلم يكتب ويتكلم في قضايا هو يعرف أن غاية ما يعرف في هذا الكلام مجرد معلومات يسيرة، وهذا قصور كبير، يجب أن يحترم طالب العلم العلم، ومن احترام العلم تقدير التخصص، وأن لا يتحدث ولا يكتب في شيء لم يقرأ فيه قراءة كافية؛ وإنما يسمع ويسأل وينظر، وليس مطالبًا أن يتكلم في كل قضية، وفي كل زمان ومكان.

المزلق الثاني: النسب الموغلة في العمومية، يعني الكلام الذي يعتمد على كلام عام

جدًا، هذا في الحقيقة يدل على قصور فكري، لما يقول شخص: نحن نعاني من فراغ فكري في المحيط الثقافي، .. يأتي بكلام سائل سائب، "نحن" و "فراغ" و "المحيط الثقافي"، لا يمكن أن تفحصه ولا تمسك منه أي شيء، فمثل هذا الكلام يجب ألا يُلقى له بالألأ، فلما يأتي بعض الناس فيتأثر بهذا الكلام، وقد يسوق له، ويعجب به فهذا دليل على إشكالية فكرية؛ لأن هذه نسب موغلة في العمومية لا تعبر عن بنية مفكر يحترم العلم ويحترم الأحكام.

المزلق الثالث: عدم إدراك وزن المسائل، هناك مسائل قطعية، مسائل ظنية، مسائل

اجتهادية، بعض طلبة العلم يتعامل مع المسائل بشكل واحد، هذا أيضًا إشكال.

الرابع: تحميل الكلام ما لا يحتمل، فقد يكون الكلام خطأ؛ لكن بعض طلبة العلم

يحمل الكلام ما لا يحتمل، صحيح أنه وقع في غلط، لكن ما هو بخطأ بالذي تقول أنت، فبعض الناس إذا رأى خطأ، يعني كأنه في حل من أمره أن يقول ما يشاء، لا؛ هنا خطأ، اذ يجب أن يكون كلامك في حدود هذا الخطأ.

المزلق الخامس: عدم احترام التخصصات المعاصرة الدقيقة، وهذا أيضاً قضية مهمة، هناك تخصصات علمية، فيها أبحاث وفيها دراسات، من الخطأ إنه يأتي شخص لا يعرف فيها شيء، فيستخف بها وينكرها بألفاظ عامة، وهذا لا شك إنه قصور فكري كبير.

المزلق السادس: العجلة وعدم التثبت من المعلومة، عدم التثبت من المعلومة يعني أن يقول كلاماً لم يعرف من قائله، أو ينسب قولاً لم يقوله شخص، أو يكون قد قاله، لكن ليس بالصورة التي قيلت عنه، أو يكون قاله لكن في سياق مختلف، يعني يجب أن يكون لدى طالب العلم تحوط في نسبة الأقوال إلى الأشخاص وإلى المذاهب.

المزلق السابع: رد القول دون فهم كافة جوانبه، بعض الناس يرد القول، فإذا قيل له: ألا يحتمل هذا القول كذا، فيقول: إذا كان كذا فهو صحيح، طيب لماذا ما تنبهت له من قبل؟ يعني قبل أن ترد القول، لماذا لم تنبه أن هذا القول يحتمل جوانب أخرى، لكن العجلة لا تساعد على فهم هذه الجوانب.

المزلق الثامن: الحكم على الأشياء بناء على مواقف وخبرة شخصية، وهذا المزلق للأسف إنه شائع، يأتي بعض الناس ويقول مثلاً: نحن نعاني من إشكالات فكرية، نحن نعاني من انحرافات، نعاني من كذا، زارني شاب، ورأيت شاباً، ويبدأ يحكي لنا، ويبدأ يتحدث عن تجاربه الشخصية، إنه التقى ببعض الشباب.

هذه التجارب الشخصية لا يُبنى عليها أحكام، يعني كونك التقيت بشباب، وتعرف أشخاص، وزرت مدينة معينة، لا تجعل حياتك الشخصية يُبنى عليها أفكار وتصورات وأحكام، نعم هي تبقى خبرات شخصية مفيدة لك، وأضفها في بنيتك الفكرية والاستدلالية، لكن لا تبني عليها قضايا وأحكام؛ إنما اجعلها فرضيات، فإذا جاءك أحد وتكلم لك عن شكوكه الإلحادية، لا تجعل من زيارة واحدة أو عشر دليلاً على أن المجتمع عنده إشكالية مع الإلحاد، إنما اجعلها فرضية للبحث والنظر والاستفادة.

المزلق التاسع: الاعتماد على المعلومات الشائعة مجتمعيًا، وهذه أيضًا مزلق، بعض المعلومات تشيع مجتمعيًا، فالمفترض على طالب العلم أن يكون عنده تمييز، لا يقبل ولا ينقل أي شيء مجرد أنه شائع يعني مجتمعيًا.

في نهاية هذه المحاضرة، أحمد الله على ما يسر وعان، وأشكركم على استماعكم وإنصاتكم وتفاعلكم، وأسأل الله أن يجعلكم مباركين أينما كنتم، وأن ينفع بكم ويرزقنا وإياكم العلم النافع، والعمل الصالح، والإخلاص وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.